# باب السِّر

الكتاب: باب السر
المؤلف: سمر جمال غيضان
تصميم الغلاف: محمد دربالة
التدقيق اللغوي: دعاء مصطفى
التنسيق الداخلي: هند محمود كمال
رقم الإيداع: 2024/30302
الترقيم الدولي: 7-389-778-977-978

---

30 عمارات العبور – طريق صلاح سالم – القاهرة
ت: 01096539633
إيميل: info@noonpublishing.com
جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للناشر

رواية

# باب السِّر

سمر جمال غيضان

للنشر والتوزيع

# إهداء

**إلى صغيري ريَّان،**
**الذي لولاه لخرجت تلك الرواية للنور منذ عامين.**

يناير 2011

## الحُسين

لم يكن هناك أي شيء غير مألوف في هذا النهار، الشوارع والمقاهي كما هي، حكايات الباعة والبشر، الساحة والفندق القديم، زوايا المسجد التي لم تتغير بتقادم الزمن، وكأن الزمن وضع إطارًا ثابتًا على هذه المنطقة، ففي وقت آخر، وفي حي الحسين تحديدًا، فتَّحتُ عيني على أشياء لم أعرفها من قبل، وطرقت أبوابًا لم تخطر ببالي قط، فليس هناك حكمة من دون حدث، والحدث أنني لمحتها اليوم وهي تدخل من باب المسجد، كنت أجلس متكئة بظهري على مقامه الشريف، وأجري بالاستغفار على سبحتي.

– لماذا جئتِ إلى هنا يا وداد؟!

دون كل الأماكن في مصر وبيوت الله، تلاحقني بجوار الحسين. ما خفت منه وجدته، كانت في مواجهتي، جالسة تسند رأسها إلى الحائط وهي تبكي، تشكو إلى الله حالها بعد غيابه، هل طالت المدة يا ألله؟ وهل تعلم أنني بكيت كثيرًا باسمك ومازلت! ليس على حالي فقط، بل على نفسي المعذبة والغائب.

***

كنت أمضي في طريقي المألوف عندما لاح الفندق بهيئته، ظهرت على مدخله اللوحة الجدارية الضخمة للزعيم الخالد، وهو يبتسم

بطريقته المعتادة، غير أن قسمًا كبيرًا من وجهه طغى على الخلفية الباهتة، كانت اللوحة تميل إلى اليمين قليلًا، موضوع بجوارها تابلوه من القماش المطبوع عليه آية من القرآن الكريم.

لا أحد يجهل مكان الفندق وتاريخه، فهو من أقدم الفنادق الموجودة في الحسين، ويعد جزءًا من تاريخ المنطقة العريق، معروفًا بطوابقه الثلاثة، غير أن امتلاكه لثلاثة نجوم وضعف تقييمه الحكومي، لم يمنع الإقبال عليه، بل ظل قبلة للمريدين والعامة والزائرين، ومزارًا سياحيًا من الدرجة الأولى، فمحبو الحسين كثيرون ومنتشرون حول العالم، والفندق المبني على الطراز المعماري الإسلامي، يتميز بغرفه الرحبة، ويطل على ساحة الحسين الشريفة دون عوائق، تخيل، بمجرد أن تستيقظ كل يوم، تطل من شرفتك على حبيبك مباشرة!

يمتلئ الفندق بشكل دائم طوال العام، أما في ليالي المولد فلا تجد فيه موضع قدم، ففي مصر يحتفلون بميلاد الحسين مرتين: يوم وُلِد، ويوم نزلت رأسه الشريفة إليها، بينما يشير الاحتفال الثالث إلى يوم إرتحال روحه الطاهرة إلى السماء، ولو تيسر الأمر للمحبين لاحتفلوا به كل يوم، وبالتالي لا أحد يتعجب من الزحام المستمر في المنطقة، للدرجة التي تجعل من نوم البعض على بلاط المسجد الخارجي، أو في حديقته على العشب، وساحته الرحبة الممهدة من الأسفلت، أمرًا عاديًا، مما يعني أنه ليس مضرًّا للجسد بقدر ما هو محبب للنفس، فأنت تنام في رحاب الحسين، حيث موضع التقرب والبركة وقضاء الحوائج.

***

طوال الطريق لم يكن هناك أي شيء يبعث على الدهشة أو القلق، لكن في هذا النهار كان الجو حارًا، صَعُب فيه التنفس، وأنا أعرف تلك الأوقات جيدًا، وأعرف أنني لن أجد مكانًا في الفندق، على الرغم من ترددي الدائم عليه في الأيام العادية، مما اضطرني إلى النوم في سيارتي الملاكي بجوار المسجد، كي أفسح مكانًا لغيري لينال نصيبه من العشق بجوار الحسين، ولكي أتفادى الزَّخْم والضيق الذي يحدث في الفندق الصغير بسبب كثرة الضيوف.

كانت الساحة ممتلئة بالشحاذين والباعة اللصوص، والكثير من المجذوبين العاشقين، وأصحاب اللحى والمنتفعين، حتى أولئك الراغبون في حيازة حياة جديدة، نالوا نصيبهم من التواجد، كل شيء يمكن أن يتواجد في هذه الساحة، "مسك من عند النبي، رضيني لأجل النبي" يمر بجانبي بائع عطور متجول، يلف حول الموجودين بالساحة ببضاعة عَطِنة، يهز رأسه بحدة فتميل عمامته البيضاء الملفوفة بالطريقة الأفغانية للأمام، فيجذب لحيتة الصفراء المغشوشة بسبب الحنة الرخيصة التي يضعها عليها كل فترة، وكأنه يذكرنا بتدينه وأمانته، قبل أن يعيد عمامته قليلًا للخلف، وهو ينادي بصوت جهوري: لأجل النبي وابن بنت النبي.

يمسك في يديه ثلاث أو أربع عبوات صغيرة من المسك المغشوش والمخلوط بزيوت أخرى رخيصة، يضعه على الأيدي من خلال بلية، وقد ينتزع يدك دون إرادتك ليمرر عطوره عليها، فتخرج رائحة لا بأس بها، وفي النهاية يجبرك أن تشتري منه لترضيه ليس أكثر، وربما لكي

تتخلص من إلحاحه المبالغ، كنت أراقبه عندما صدرت خشخشة من هاتفي المحمول، ذكرتني بما أنا قادمة لأجله، تركت البائع واتجهت ناحية مسجد الإمام، منحرفة بجوار مدخل جانبي صغير للسيدات، لأعبر منه، من الباب الأصغر "باب الفرج".

– خذ باب الفرج معبرًا للمقام، ستجدني هناك كل يوم.

– وما الذي سيجعلني آتي إليك كل يوم؟

– القدر.

ظلت عبارتها تتردد في رأسي لأيام، يومها ذهبت إلى هناك بالصدفة مع حبيب لي، لم أكن أتوقع أن تجذبني الأقدار، وأعتاد الذهاب إلى المقام كل يوم بعدما أنهي عملي، للدرجة التي جعلتني أتحول من مدخنة شرهة وفتاة لا تبالي بهذا العالم، غارقة في الحسابات المادية وخطط المكسب والخسارة، إلى سيدة روحانية، ففي الفترة الأخيرة لم يعد لي ملاذ آمن إلا في حضرته، حدث ذلك عندما تركت الدنيا واخترت الهروب.

***

بدت لي وداد هذه المرة امرأة عادية، ليست في مهابة المرة الأولى التي رأيتها فيها، تلبس جلبابًا أسود فضفاضًا بشكل غريب، يُسمى ملحفة، تلبسها السيدات في الصعيد مع طرحة سوداء من الكتان، كانت ملفوفة بإحكام حول رقبتها وفوقها شال أسود من الصوف ترميه فوق رأسها وكتفها، وجهها ما زال جميلًا رغم الكبر، لكنه مجعد للغاية خاصة حول

العينين، ويحمل همًّا ثقيلًا، بدت لي عاجزة، لكنها راضـــية كنبي راضٍ بقضاء الله، كلنا أنبياء موجعون في هذه الدنيا، نسأل الله أجرنا.

كان هناك صوتًا يشدو من ناحية المقام، إنشاد ديني من امرأة عربية، تغني بلهجة عراقية، فهنا تجد كل يوم شادية تشدو بحب ابن بنت النبي ونحن نردد ما تيسر لنا من الحفظ.

قامت وداد وذهبت تقف بجوار الشـــادية بثوبها الأبيض، تجلس وتسند ظهرها لتسمع أفضل، لعلها تجد راحة لها في كلامها.

والمرأة صوتها يرتفع في حضرة الحسين وهي تسند يدها على سور مقامه الجميل.

"مو عجب تزهر الأرض وأنت ساكن ثراها هالله هالله يا طه
مو عجب يختفي القمر من تنوّر دُجاها هالله هالله يا طه
مو عجب تِخْجَل الشمس وأنت ماحي ضياها هالله هالله يا طه
السور تشهد إلك وبنورك يدور الفلك
فاز من بيكم مسك واللي يعاديكم هل
الله بك أنقذ أمم تايهَهْ بجور وظلم تِجرعْ مآسي
ضايعة بجهل وعدم رسّخت فيها قِيَمْ مثل الرواسي".

رددت وداد في صوت مرتفع:

– رده لي يا الله! تهت وضـعت وغرقت بجهلي عن أحواله، فأنقذني وأنقذه.

لتكمل الشادية وأنا أنظر نحو وداد، أبحث عن ماضٍ قد ولى:

"أولنا محمد أوسطنا محمد آخرنا محمد صلوا على محمد".

يرتفع صوت الصلاة على محمد أعلى من صوت الرياح التي تعصف بقرية خالية، ثم يهدأ المسجد وتكمل، وأنا أخطو نحو الصوت وسط صفوف النساء.

"اسمك بعرشه سجله والعرش بك تباهى هالله هالله يا طه
عالرسل ربي فضلك من تجلي بطواها هالله هالله يا طه
والكليم أدرك العصا وأنت مصدر قواها هالله هالله يا طه
الله في وادي طوى إرث النبوة سلّمه
لو هَوْ بسمك ما دعا ما خاطب الله أو كلّمه
الجذع ما هو عجب ليثمر واهمى رطب وتهزّه مريم
ما صعب ليها طلب حبك الغالي سبب يبدد الهم
أولنا محمد أوسطنا محمد آخرنا محمد صلوا على محمد
طه لولاكم الشمس ما زهت في ضحاها هالله هالله يا طه
والقمر لولاكم أبد ما بدى أو تلاها هالله هالله يا طه
الله في حبكم النفس يلهمنها تقاها هالله هالله يا طه".

كانت الجموع حولها تردد كلمة أو كلمتين كما يفهمون منها.

أغير مكاني لأجلس في مدخل المقام، ألتفت حولي وأنا متمسكة بسبحتي، أسبح وأستغفر، لا شيء سوى الاستغفار يريحني من ذنبي،

كنت ألبس ملابس تليق بدخولي المسجد ككل يوم، لا أعلم لماذا نظر لي بعض النسوة هكذا، كنت ألبس بنطلونًا طويلًا وقميصًا فضفاضًا يتماشيان مع طبيعة المسجد، وأضع غطاء خفيفًا للرأس على شعري الأسود بسبب الصبغة، فمنذ سنوات غزا الشيب شعري، فصرت أصبغه كي لا أسمح للزمن بأن يقهرني.

لم أكن أعطي اهتمامًا لنظرات هؤلاء النساء ولا الشدو من حولي، ولكن عيني كانت مثبتة على وداد والمقام، لا شيء يغريني هنا سوى المقام ومغفرة أبحث عنها. الشادية تكمل وأنا أستغفر.

"نوح يوم اللي سعى والباري بيكم نصره
وموسى يوم اللي دعا وخابت ظنون السحرة
بيده يعقوب وحضن يوسف أو روعه سكن بيكم تعافى
قاسى يعقوب ووهن وعاش ذا النون وحزن بيكم تشافى
أولنا محمد أوسطنا محمد آخرنا محمد صلوا على محمد
طه لولاكم الفلك ما جرت في مداها هالله هالله يا طه
والكواكب هلي تشع ما ضوت في سماها هالله هالله يا طه
والنجوم اللي أزهرت ما بدت في فضاها هالله هالله يا طه
بمحمد وعلي ما تبقى لي هم وألم
حيدر اخترته ولي والهادي غذاني قيم
ولو يخاتلني زمن قلبي بالزهرة أمن أم الأيمه
أنخي بالضحى إلي بالحسين ابن علي عند الملمة".

وقعت عيناها عليَّ، فما كان منها إلا أن قامت من جوار الشـــادية وشـقت طريقها لتدنو مني، تنظر إليَّ، وترى فيَّ شـيئًا من الماضـي، هل أنا من جابت الأرض غربًا وشرقًا بحثًا عنها؟

– نعم، أنـا يـا وداد، ولكن كيف عثرتِ عليَّ بعـد كـل هـذه الأيـام والسنين؟

"الله لولاكم السماء ما رفعها أو بناها هالله هالله يا طه
الله لولاكم الأرض ما وجدها أو دحاها هالله هالله يا طه
الله لولاكم الإنس ما خلقها أو براها هالله هالله يا طه
أول العترة بدر رفيع أو عالي الدرجة
صفوة آخرهم ذخر إلهي عجل فرجه
طه من حبه ضمن جنته تبقى ثمن فوز أو سلامه
حب أهل بيته وطن يجري بعروق وبدن حصن الإمامة".

تنفست الشادية الصعداء وجلست من التعب بعد وصلتها الطويلة.

– والإمامة لله لو تدركون.

أقولها وأنهض، أهرب من وداد، أجر سبحتي، أمشي هَوْنًا حتى باب سـيارتي السـوداء الصـغيرة، فالفندق اليوم مكتمل العدد، ولا مكان لي، اضـــطررت للمبيت في الســيارة كما أفعل في بعض الأيام، فتحت بابها وأغلقته بسرعة على جسدي المتعب وعيوني الباكية.

***

لو أن الزمن أراد أن يكرر نفسه بكل تفاصيله، لأصبحت الذاكرة شيئًا يدعو إلى الضجر والملل، لكن الذاكرة لم ترحمني وأنا أتذكر ماضيًا قد ولى بسبب عودة وداد، أتذكر أني كنت طبيبة على وشك ممارسة المهنة، وأني كنت جميلة تلاحقني العيون، لي بيت ومكان أعود له في الليل، اسمي يُكتب في الجرائد، والآن بعدما قررت الهروب بسبب ما فعلت، أصبحت مشردة بين الفنادق والنوم في سيارتي في الخلاء، معرضة نفسي للحوادث كل دقيقة، بالإضافة إلى قانون الشارع وعالمه المخيف، ولكن للظروف أحوالها.

اخترت تلك الحياة، وأنا أحاول أن أكفر عن ذنب يثقل رقبتي وديني أمام الله، بعت كل شيء أملكه ووهبته لوجه الله، ولم أعد أملك شيئًا سوى سيارتي وبعض الملابس، ومحل استأجرته فيما بعد، للترزق منه يومًا بعد يوم.

الوقت ما زال مبكرًا للنوم، لم تكن تجاوزت التاسعة بعد، ولكنه مناسب لسماع بعض الموسيقى من فيروز، أتخيل ماذا ستفعل وداد بي لو عرفت الحقيقة، ولماذا أتت هنا الآن؟ لا أترك نفسي لعقلي المتلاعب، أدير الكاسيت سريعًا.

لتخرج بداية السهرة بأغنيتي المفضلة:

"تذكر آخر مرة شفتك.. تذكر آخر كلمة قلتا.. وهلأ شفتك.. كيفك إنت؟ ملا إنت".

شعرت بأن هناك شخص يراقبني من خلف السيارة، حركت المرآة قليلًا وجدتها، كانت وداد، تراقبني وأنا أستمع للموسيقى، واقفة عن بُعد تحاول الاختباء كي لا تكشف عن نفسها، تتحرك حول السيارة بطريقة تتوافق مع النوتة الموسيقية، لكنها لا تقترب من المسافة التي تجعلها في مرمى النظر، ترددت كثيرًا وأنا أحاول تجاهلها ولكن كيف أفعل وهي عقدة حياتي؟

عادت وداد إلى داخل المسجد عندما انتهت الموسيقى، وأغلقت أنا بدوري النور الداخلي للسيارة لأستدعي النوم، هل ترين أين وصل الحال بي يا وداد؟!

صرت أنام في الشوراع، حالي ليس أفضل من حالك كما تعتقدين، إن كنتِ تبحثين عن ضالتك في الأرض، فأنا صرت بلا أرض وبلا هدف، أنا وذنبي وماضٍ ثقيل فقط في جسد محكم الإغلاق.

هاهو الجو قد راق من ضيوف الحسين، ونام من نام بداخل المسجد، تركت محاولاتي اليائسة لاستدعاء النوم ودخلت المسجد ثانية، أبحث عن وداد لأطمئن عليها. وجدتها افترشت الأرض ونامت بجوار النائمين في مصلى النساء كما توقعت، اطمأننت عليها وذهبت لسيارتي ثانية، مع الذكرى والفكر وضميري، كنت أعيش في ليل طويل وبارد.

***

## باب السر

للحسين خمسة أبواب، باب الفرج أحبهم إلى قلبي، أحب الخروج منه ليحل الفرج على حياتي، استيقظت قبل وداد، عندما خرج الهدوء منسحبًا من المسجد بعد آذان الفجر وحل مكانه ضجيج الحياة، فقد أشرقت الشمس وأصبح الكل يبحث عن غايته.

رائحة الطعام تعبئ الأجواء، والنساء يتحركن في بطء ملحوظ من مكان لآخر داخل ساحة المسجد، كُنَّ قلة، حوالي عشر نساء وهي، هؤلاء النسوة يعشن هنا منذ سنوات بين المجيء والذهاب، وهي الجديدة الوحيدة بينهن.

أراقبها من خلف المشربية في الجانب الثاني من المقام، وهي تحرك يدها لتستند عليها وترفع جسدها المتصلب من نومة الأرض، لتجلس نصف جلسة ما بين النوم والصحو، ترمي بظهرها على الحائط، في انتظار أن يذهب عنها ملاك النوم.

حاولت مرارًا أن تفتح عينيها دون جدوى، فشعرت أنها ربما تشتاق إلى كوب شاي ثقيل من سمالوط، أعرف كوب الشاي الذي تصنعه، أحبه وأشتاق له مع الصحبة التي رافقتنا أول مرة، كان ينزل إلى الجوف، فيجعل المرء حيًّا من جديد.

أرسلتُ لها امرأة من معارفي في المسجد بإفطار تحبه.

رست المرأة بجوارها وفي يدها لفافة طعام من الفلافل والخبز

والباذنجان والبطاطس المحمرة، فردت لفافة الطعام في حركة سريعة وأخرجت أرغفة الخبز تمدها لها.

– سمي الله على الطعام يا حجة.

كم يبدو الإنسان بسيطًا وحلو المعشر، وكريمًا، ومتقبلًا للآخر في حضرة من يحب!

– شبعانة والحمد لله.

– كله من خير الله، اجبري الزاد.

– حاضر، لأجل الزاد.

قضمت بضع لقيمات من الفلافل مع الخبز، وركنت باقي الرغيف على اللفافة، ثم تركت كل شيء واتجهت نحو باب الخروج.

***

لم يكن اليوم يوم جمعة، لذا شاع بعض الصمت في أرجاء المكان، الشمس حاضرة بقوة وليست كشمس يناير المعتمة، يبدو أن اليوم سيكون لطيفًا، ضربت بعيني يمينًا ويسارًا أبحث عنها بعد خروجها من باب الفرج، وأنا أحاول اللحاق بها من باب السر.

وجدتها قرب المقهى الموجود على بعد خطوات من المسجد، سرت خطوات خلفها ولكني تراجعت عندما توقفت هي، بقيت واقفة كأنها تبحث عن شخص ينقذها، كانت تبحث عن صبي القهوة، الذي أشارت له بمجرد أن لمحته، مخافة أن تكون وسط كل هؤلاء الرجال

وحدها في المقهى، كم هي محافظة وداد، لا تتغير ولا تتأقلم. كان صبي القهوة شابًّا في بداية العشرينيات يحمل صينية من الاستانلس محملة بأكواب زجاجية شفافة، يتحرك في حركة سريعة، لا تعرف كيف يخطو بها بين الكراسي بكل تلك الخفة..

ركض إليها عندما أشارت له قائلة:

– لو سمحت يابني، كوب شاي مغلي ثقيل سكر خفيف.

– من عيوني يا أمي.

– سأنتظر هنا.

اطمأننت عليها وأنا أراقبها من بعيد، وهي واقفة تنتظر الشاي، جاء الصبي ممسكًا بكوب الشاي، ومعه عود نعناع أخضر يضعه على الصينية، يترك لك حرية الاختيار، قليلة هي الفرص التي تمنحك الحياة فيها حرية الاختيار!

تركت النعناع لأنه غير مغلي مع الشاي، وأخذت الشاي فقط، ثم ذهبت لتجلس بجوار رفيقتها "امرأة الفطور" ومعها كوب واحد من الشاي، أدركت خطأها عندما نظرت امرأة الفطور للشاي في شهوة، اعتذرت لها وعرضت عليها أن تأتي لها بكوب مثله، لكنها رفضت، وتجاذبتا الحديث.

– اسمك إيه يا أمي؟

– وداد اسمي وداد.

– اسم جميل، منين؟

– سوهاج.

– مجذوبة؟

– موجوعة يا ست، وبدور على دواء هنا عند ابن بنت النبي.

شربت الشاي وخرجت تبحث عني.

***

كانت وداد لا تزال تفكر في الحكاية القديمة، ويبدو أنها قد خافت من فقدي ثانية كما أخاف أنا من مواجهتها، سألت عني كما أبلغني صبي القهوة عندما أتى إليَّ في الدكان يحضر لي القهوة، فدلها على دكاني في شارع الصالحية.

والأهم من ذلك سألته عن اسمي، فأجابها: عاليا.

***

## عاليا

في محلي المستأجر، كنت أشكل تلك القطعة الفضية اللامعة، أرفعها لأعلى بين الحين والآخر لأرى جمالها كلما أنجزت منها شيئًا، أملك يدين من حرير كما يطلق المصريون على كل حرفي ماهر.

أمكث على قطعة الفضة أشكلها، أصنع أشكالًا تبهر النفس وتُدخل السرور، ترتعش يدي في بعض الأحيان، ما زلت صغيرة في السن على تلك الرعشة، لكن هناك شيء ما يجعلني أرتعد، ربما السبب من عقلي، فهو سبب كل بلاء يصيب المرء.

كانت وداد واقفة أمام المحل تنظر لي في سخط، تتفحص ملامحي بطريقة حادة، تبحث عن يونس في ملامحي.

دعست الزمن والمكان كي أهرب من وداد وماضيها والآن تعيدني للماضي، أضعت ثلاثين عامًا من عمري هنا في رحاب الحسين لم أخرج منه قط، تركت دراستي وبيتي وعملي وحياتي وخطيبي، وصرتُ مشردة أنام في فندق درجة ثالثة أو في سيارتي لو تأزم الأمر، كي أتجنب تلك النظرة منكِ يا وداد، والآن تجدين الطريق لي!

كانت تبحث عن المرأة التي تعرفها في الماضي، بينما يصنع الحاضر المرسوم في عيوني حكاية مختلفة، فالمرأة التي أحملها بين طيات ذاكرتي ماتت، جاءت تبحث عني وأنا مدركة أنها ستعود خالية الوفاض، لأنني لم أعد كما أنا.

والحقيقة أن تجدني بين زحام القاهرة وحدها معجزة، ويبدو أن بركة الحسين قد طالتها، مدد يا حسين، مدد يا رب!

حرصت أن أكون غير منتبهة لوداد بقية النهار، أشغل نفسي بالعمل، لكن العامل بالمحل انتبه لوجودها، ومال على أذني:

"إنها هناك واقفة منذ الصباح تنظر لكِ، كمن يرسم لوحة مفصلة".

نظرت لعيون وداد مباشرة، ربما ستخاف من تلك النظرة، لكن النظر في عينيها أربكني أنا، وجعلني أخرج علبة سجائري، آخذ منها واحدة، أنفخها في حنق، وأكمل عملي، أخاف أن أرفع عيني ثانية، لأجد وداد ما زالت مكانها متسمرة، غريب أمر تلك المرأة، لن تتركني، أليس كذلك؟!

قال لي مساعدي في نوع من المزاح، إنها ربما تكون من الموساد الإسرائيلي تدبر لعملية اغتيالي، لأن عمل الفضة اليدوية في مصر نادر ومهم، أضحك كيف جاءت تلك الفكرة له! لست بتلك الأهمية عند أي شخص حتى يغتالني الموساد.

أنا أعرف لماذا هي هنا، ولكنها جاءت متأخرة ثلاثين عامًا.

***

## تبادل

هناك نوعان من العمل في العالم، نوع يطمئن صاحبه بأن الغد لن يكون مغايرًا، ونوع أخر يذكِّر صاحبه بعدم استقرار الحياة، والحياة معقدة، ففي أوقات الشدة يقل التفكير في نوع العمل، هكذا بدأت في دق الفضة هنا في الحسين في أحد الورش، كنت لا أملك سوى أدواتي التي اشتريتها حديثًا عندما قررت الانعزال والهروب من العالم ووقتي الكبير.

والآن صرت أمتلك دكانًا صغيرًا خاصًّا بي، استأجرته منذ زمن من أولاد الرجل الذي علمني دق الفضة، عندما مات عرضوه للبيع، ولكني لم أكن أملك ثمنه فعرضت استئجاره ووافقوا تكريمًا لأبيهم.

كان الدكان مزينًا بالعديد من التحف الفنية من الفضة وغيرها، واللوحات المشغولة بالكروشيه، والخطوط الفرنسية التي أحبها، كأمي التي جعلتني مغرمة بكل ما هو فرنسي، وأيضًا لوحات عديدة بها شجر الأرز اللبناني، لتذكرني بشيء من الماضي، وبعض الصور الصوفية والموَّالية للراقص الذي يفتح ذراعيه لله، كي يُفتح له العالم.

أجلس في كرسيَّ المنخفض ذي المسند الطبي كما أمرني الطبيب منذ سنوات تجنبًا لآلام الرقبة، منحنية أمام تلك القطعة التي أشغلها لعميلة طلبتها خصيصًا هدية لحبيبها. أرفع رأسي من التعب والضغط المنخفض، وما زالت وداد جالسة قي مقابلتي على المجلس الرخامي الموضوع أمام بيت السحيمي، تراقبني في هدوء.

كنت لا أعرف ماذا تريد مني بالتحديد، هل تريد الانتقام أم مجرد سؤال عن فقيدها؟

أنا أضيق ذَرْعًا بأي نوع من المراقبة، تملئني بالضيق، وما زالت وداد تعاقبني ليومين كاملين ولا تتوجه لي بالكلام، وإن كنت لا أعطيها فرصة لتبدأ الحديث معي، أهرب منها كلما وقعت في مواجهتها، فأقطع الطريق عليها، ورغم أنه كان بإمكانها مباغتتي للتحدث معي، لكنها لم تفعل، وفضلت مراقبتي بتلك الطريقة.

تجلس بالساعات على الدرجات الرخامية لمدخل بيت السحيمي، ولو طلب منها أحد النهوض، تجلس على الرصيف المواجه لدكاني ترمقني كالفرائس، وماذا بيدي كي أمنعها؟ فالشارع ملك للجميع، وخاصة لو كان شارعًا سياحيًّا كشارع المعز، لن تستطيع منع أحد عنه.

انكببت مرة أخرى على القطعة التي أشغلها منذ يومين، أصنعها لفتاة تقدمها هدية لحبيبها يونس، ولا أعرف كيف خرجت مني تلك القطعة باسم ياسين!

***

## حريق الحسين

تلك اللوحة الجدارية لضحكة سيادته؛ ربما ضايقت البعض أو الجميع، تذكرهم بخيبتهم في وطنهم، فكلما مروا من أمامها يضيقون بها ذرعًا.

ولكن أحدهم كان جريئًا بما فيه الكفاية وأشعل النار بها، أو ربما كانت حادثًا غير متعمد، لا أعلم بالتحديد ماذا حدث، لكن الحريق الذي كان صغيرًا في البداية، تمدد ليلتهم ليطول الكراسي والأثاث في الدور الأرضي للفندق، وكذلك في المقهى الملاصق له، ثم هربت النيران للخارج تعلن عن حضورها، وبدأت ألسنة النار ترتفع في سماء القاهرة في الساعة السابعة مساءً يوم الخميس ثلاثة وعشرون يناير 2011.

كنت في دكاني أعمل عندما وصلني الخبر، فأغلقت الدكان وذهبت أطمئن على سيارتي. في خلال نصف ساعة، كانت العديد من قوات الحماية المدنية، وسيارات الإسعاف، وكل من له علاقة بالحرائق هناك، فهذا المكان التاريخي سيجلب لهم المشاكل لو قصروا في عملهم.

السادة الصحفيون والمصورون كانوا قد وصلوا قبل سيارات الإطفاء، مجتهدون في الحقيقة أولئك الصحفيون المصريون، يحملون مانشيتات عريضة عن الحريق الذي كاد يلتهم مسجد الحسين قبل أن يعرفوا مدى سوء الحريق، الذي يبعد عن المسجد مئات الأمتار، لكنه لزوم المهنة.

العاملون في المسجد، والمريدون، والمحبون، والشحاذون، وكل من تتصور من الخلق كان يزاحم بعضه البعض ليرى ماذا حدث.

وأنا أيضًا كنت هناك، واقفة على مقربة من الحادث ربما ليس في قلب الزحام ولكن ليس ببعيد، هرولت بسرعة خوفًا على سيارتي الصغيرة من الحريق، لكن بمجرد وصولي تبين أنها بعيدة كل البعد عنه، فجلست بالقرب منها أحميها من أن يصعد عليها الناس ليروا الحريق، وقفت على مقدمة السيارة أشعل سيجارة وأشهد هذا المشهد الملحمي عن التزاحم من أجل اللا شيء، لكنه قانون الحياة،عندما تجد زحامًا، تنخرط مع الجمهور، ربما ستنال نصيبًا من الرؤية والعظة.

ظهر لي من وسط المجهول، وجه أعرفه جيدًا، فلا يمكن أن ننسى وجهًا أحببناه يومًا ما، وجه يشبه الملائكة لدقة ملامحه وتناسقها، كان يملك وجهًا مستديرًا مع أنف صغير وعيون واسعة، مكسوًّا بلمسة من المرمر الأبيض على بشرته، جعلت جلده لا يبهت ولا يتجعد. وما زاده

جمالًا كان ذوقه في الملابس، فكان يرتدي قميصًا وبنطالًا كلاسيكيًّا مع حذاء جلدي لامع، كما لو كان في العشرينات من عمره وليس الخمسينات.

لا أعرف كيف كان متجهًا نحوي بتلك الدقة، هل يملك مغناطيسًا يشده نحوي؟! لو أرسل له أحد موقعي على الخريطة، ما استطاع تحديده بتلك الدقة.

ولكن ثانية واحدة، هل ينزل الآن رئيس التحرير بنفسه ليغطي أخبار الحرائق؟

أتابع الجرائد يومًا بيوم من أجله هو فقط، منذ كان صحفيًّا صغيرًا في الأهرام حتى صار رئيس التحرير، كنت أحلم بما وصل له منذ وقعت عيني على قلبه.

سأهرب منه مرة أخرى بالتأكيد.

لكني وجمت مكاني، لا أعرف إلى أين أهرب وهذا آخر ملاذ آمن لي في العالم. واجمة مكاني، ما زلت أسند ظهري على مقدمة السيارة، أجمع الكلمات في فمي لأخرجها بقوة عندما يصل إلي ليبتعد، أما هو فكان يخترق الجموع فيفرقهم ليشق البحر نحوي، وأنا واقفة كرمال الشاطئ أتفرج فقط على أقدامهم تدوسني.

ياسين ما زال موقفه ثابتًا واضحًا كما كان، يعرف ماذا يريد، يقترب نحوي بخطوات سريعة وثابتة، بقدر وعظمة ما حمله قلبه في تلك الأعوام السابقة.

فاجأني عندما وطأت قدماه مربعي، وأنا أهم برمي عقب السيجارة من يدي، وضعني في كنفه كما يوضع الرضيع وأحكم الإغلاق.

ما زلت لا أستوعب ما يحدث، فلا أعرف كيف أفرد ذراعي وهو يضمني هكذا، أكره أن يُفرض عليَّ أمر ما، حتى وإن كان حضنًا دافئًا.

هربت مني دمعة من عيني على غير رغبتي، وبدأت في البكاء بصوت منخفض، وأنين يخرج من قلبي لا أعرف له سببًا، بكيت كما بكى آدم يوم نزل من الجنة، دون أن أحسن معرفة أسبابي.

لماذا عدت يا ياسين؟

عادت وداد منذ يومين والآن عاد ياسين، متى تعود يا يونس لتنتهي المأساة؟!

أتذكر أول مرة رأيت فيها يونس، في جامعة القاهرة سبتمبر 1980.

سبتمبر 1980

## جامعة القاهرة

هنا حدث كل شيء وتغير العالم من بعدها، من هنا مر طه حسين، العقاد، زويل، الباز، محسنة توفيق، بطرس غالي، سهير القلماوي، سميرة موسى، عثمان أحمد عثمان، مجدي يعقوب، عادل إمام، سمير غانم، وعدد لا نهائي من عظماء مصر، لا تعرف أي قدم عظيمة قد خطت تلك البقعة من الأرض قبلك، كل جزء من هنا مر عليه عظيم ذات يوم، كيف ستكون ذكرى بقعتك من الأرض؟

تخيلت ذات مرة أنه عندما يحل الليل، تتحدث جدران الجامعة مع بعضها البعض، كلٌّ منهم يحكي عن يومه، وتختلف الجدران ما بين المعامل والمكاتب والمكتبات، عن أي جدار كان الأسعد اليوم، بوجود عبقري ما بجواره، هذا الكم من العباقرة الذي يتواجد هنا، يجعلك تدرك لأي مكان تنتمي، الاختراعات التي تنجح وتفشل كل يوم بين المعامل، والقصائد التي كُتبت على المدرجات والأوراق، والنظريات التي يتناقشون بها، وكل جدار يتباهى بما حدث بداخله خلال اليوم الواحد.

هل سوف تذكرني تلك الجدران بالخير ذات يوم؟

أنا الذرة بين الخليط العبقري، الذي يمر على الجامعة كل عام من الطلاب، يجعلك تتساءل عن مدى انسجامهم معًا وكيفية ترويضهم للبقاء في سلام هكذا.

ولا أقصد بالخليط تلك الأعداد المهولة من الطلاب القاهريين

وتنوعهم، على الرغم من انتمائهم لنفس المدينة، ولكن كذلك طلاب الأقاليم والبلاد العربية والأجنبية المختلفة، فالطلاب الذين يدرسون بجامعة القاهرة خليط من المصريين والعرب والأجانب، وجنسيات لا أعرفها ولم أسمع عن بلادها من قبل.

وكنت أنا الذرة الصغيرة على رأس الطلاب المغتربين، فقد أتيت للدراسة هربًا من نيران الحرب الأهلية بلبنان، بعد أن صعدت أحلامي هناك عنان السماء، واستطعت أن أهرب كي أعرف الطريق نحو الأمان والاستقرار، قد حجزت لي المساعدات المالية الشهرية التي يتم تقديمها للطلاب من الجامعة، مع الإعفاء من المصروفات لبعض الطلاب العرب بجانب تفوقي الدراسي، وضع مالي مستقر.

وقرار الإعفاء من المصروفات الدراسية ينطبق على معظم الوافدين العرب، من الدول التي طالتها الحرب بعد تقديم بعض المستندات التي تفيد بالحالة المادية للطالب، لهذا نحن - العرب - نحب مصر، يدها ممدودة للجميع في كل الأوقات.

أعرف أن الكلام السياسي ممنوع في الجامعة، ليس بقوانين في اللوائح، لكنه كعرف سائد بين الجميع، فالكلام في حد ذاته ليس مخيفًا، ولكن ربما هو الخوف من أن يتسبب في جر نوع ثانٍ من الكلام إلى البيوت والشوارع، فما بالك إن خرج الكلام من ضيوف وليسوا أهل ديار.

ولكني لم أكن تلك الفتاة الطيّعة، كنت مندفعة للغاية، أرى أنني قادرة على تغيير العالم، عندما قررت أن أقف على سلالم كلية الطب

البشري، وأطالب بما أريد في وسط الحرم الجامعي.

منظري من بعيد جذب الجميع، فتاة تلبس بلوزة بيضاء قصيرة على بنطال جينز شارلستون، مع وشاح فلسطيني كي يكتمل شكلي الثائر، وقد لممت شعري للخلف كي أبدو جادة في كلامي، أقف على أعلى السلالم أرفع جريدة الأهرام في يدي، وأنبح بصوت عالٍ في الهواء، بلكنة عربية واضحة، خبر مكتوب في الصفحة الرئيسية عن الأراضي الفلسطينية المحتلة، التي قررت دولة الاحتلال أن تضمها إليها اليوم، وكيف اكتملت الجريمة بقيام الطيران الحربي للمحتل الصهيوني بضرب مقر منظمة التحرير الفلسطينية بالأمس.

قلت في صوت جهورى، وأتذكر الكلمات بوضوح بعد مرور كل هذا العمر، فما زالت ترن في أذني:

"إن العرب وخاصة المصريين وجيشهم العظيم، يجب أن يتحملوا مسؤولية تحرير الدولة الفلسطينية ويعيدوها من ظلمات الاحتلال. لا يمكن أن يقف أي شخص وطني مكتوف الأيدي أمام ما يحدث، يجب أن نتحد كمواطنين شرفاء لحث الجيش والدولة على شن حرب ضد دولة الكيان الصهيوني، ولن يعارضنا في ذلك إلا من كان خائنًا أو متخاذلًا، ولا أظن المصريين متخاذلين، اليوم قصفوا مقر منظمة التحرير الفلسطينية وغدًا يقصفون المسجد الأقصى".

يونس كان جالسًا على العشب في الحديقة المقابلة للسلالم، أتذكر كيف كان يبدو باهيًا، وهو يلبس قميصًا كاروهات أخضر اللون مع بنطال لونه بني فاتح وحذاء باتا، يبدو أنه كان مستمعًا جيدًا للكلام،

لفت نظري نحوه بضحكته العالية استهزأ بي، كان يضحك عليَّ كلما حاولت رفع صوتي أكثر، فيثير ضحك من حولي من الطلاب الآخرين.

لم أعرف سببًا لذلك الضحك على كلامي، هل أصبح المصريون متخاذلين نحو القضية واعتبروها مصدرًا للسخرية؟

عندما أطلقت ما بجعبتي عن ضرورة تدخل الجيش المصري لإنهاء الاحتلال، وعبارات عن كون الجيش المصري هو المسؤول عن تحرير العالم العربي كله، لأنه الجيش الأقوى في المنطقة، وكيف أن تراجعه عن الحرب يشعرنا بالخذلان.

تحولت وجوه المارة من الضحك للعبوس القاتم، كادوا يلقون عليَّ ما بأيديهم وأرجلهم على رأسي ليتهشم في الحال..

كان الحديث الذي خرج مني مصدرًا للفتنة، صار يلف بين الطلاب الواقفين همسًا، يضايقهم في الظاهر ويقتلهم في الباطن، ربما إيماناً بكلامي في عقلهم الواعي، أو عجزهم عن عمل ذلك.

فصار الشباب الواقفون حولي يتساءلون عن كلامي الذي قلته بين بعضهم البعض، حتى رد عليَّ يونس:

"كيف يجب على المصريين فقط أن يدفعوا حياتهم ووقتهم وأموالهم ثمنًا لتحرير أراضي شعوب ثانية، وإن كان يربطنا بهم روابط قوية؟ فلماذا لا يتحرك معنا شعب أو جيش آخر؟".

رفضت أن أرد على سؤاله هذا، تحركت من مكاني أنزل لأسفل السلالم لأذهب لحال سبيلي، لمّا رأيت وجوههم قد تغيرت، قلت

لنفسي: في يوم آخر أكمل ما بدأت. ثم خانتني شفتاي حين تحركت بصوت خافت أقرب للهمس وأنا أمر بجوار يونس:

"متخاذلون، وجبناء".

قفز يونس من مكانه على العشب وقد سمع كلماتي على ما يبدو، وهو يحمل كتبه بيده متجهًا نحوي، والحنق الشديد يأكل وجهه كمن ينوي العراك، تصورت أنه سيرميني بالكتب التي يحملها.

تراجعت في لحظتها للخلف ثانية، فخطوت نحو السلالم، خفت أن يضربني بشيء مما في يده، لكنه فتح فمه بالرصاص نحو صدري:

– من قال لكِ يا طفلة أن المصريين متخاذلون؟! إذن من قام بحرب 48، وحرب الاستنزاف، وحرب اليمن، وحرب أكتوبر، وحرب الكويت؟ المصريون - وحدنا ولا غيرنا - يخوضون حروبهم وحروب غيرهم ولا يتأخرون، الجيش المصري وحده في المنطقة واقف وصامد وناجح في كل أوقاته. إن ثورة الكلام المكتوب التي نسمعها منكم، لتدفعونا لحرب جديدة ليست حربنا، لن تحرك بنا شعرة، فقد فقدنا ملايين من أبناء هذا الوطن، في مقابل شعارات العروبة وما زال العرب كما هم ينتظرون لنحارب بدلًا منهم، لا هم رجال بما يكفي ليخوضوا حروبهم وحدهم، ولا رجال شجعان كي يعترفوا أنهم غير قادرين على خوض الحرب، فقط يزجون باسم جيش مصر في أي عبارة تخص الحروب، كأن الحروب خُلقت لنا وحدنا! لتعيشوا أنتم في أمان ونعيم.

استفزني تعامله معي بتلك الطريقة فتوجهت إليه وقد بدا على وجهي الغضب.

– من أنت لتكلمني بتلك الطريقة؟

– أنا ابن هذا الوطن دافعٌ من دمي ودم أجدادي، وحدي لي حق المواطنة، وحق المطالبة بالحرب، ولي حق الرد على ضيوف الفتن.

– لا أصنع الفتن، بل أظهر الحقائق والحقوق.

– أي حقائق وحقوق؟ حقوقك هناك في بلدك، هنا أنتِ مجرد ضيفة، تلتزمين الأدب!

– أنا أعرف الأدب قبل أن تعرفه أنت، وأعرف حقوقي، وأعرف أن مصر بلدي الثاني ولي حق بها مثلك تمامًا.

– إن مصر في الحروب والأزمات تكون للمصريين وفقط، وحتى بعض العرب الذين يأكلون من خيرها في الرخاء ويكدسون الأموال، يتهربون منها حينها بدعوى النجاة من الأزمة، وتصبح حينها مصر للمصريين فقط، ولكن في الرخاء والتقدم ووجود التاريخ وسطوة الفن وقدرة جيشنا تصبح البلد الثاني للعرب! ولا مكان لنا نحن فيها.

– أنت تخرف وتدفعني للعراك.

– أنا؟ ألا تدفعين البلد كلها للحرب من أجل بلدك؟!

– فلسطين ليست بلدي، ولكنها قضيتي.

– وأنا مصر بلدي وقضيتي.

كان صوت النقاش المحتدم قد جمع الطلاب من كل أنحاء الجامعة للمشاهدة، فأنا شخصية مشهورة نسبيًّا وسط كلية الطب، لعدة أسباب:

كوني غير مصرية الأصل وهذا سبب كبير لجذب الانتباه، وفتاة تملك قدرًا عاليًا من الجاذبية والجمال، ومشاركة في معظم الأنشطة الطلابية وخاصة مجلة الحائط التي أكتب بها بشكل دائم.

كلما تجمهر حولنا طلاب، خرج صوتي أعلى وزاد يونس في توجيه إهانته لي، أحاول رد إهاناته فأفشل وأزيد في رفع صوتي، حتى صار صوتي كصوت السُّرْعُوب.

هل تعرفون حراس الجامعة؟ كنت لا أعرفهم سوى في الدخول والخروج، الآن سأعرفهم حق معرفة.

فالصوت العالي الذي اخترق قاعات المحاضرات، جعل عميد الكلية يصدر أمرًا بإحضارنا من خلال حرس الجامعة، أخذونا كالمتهمين مقيدي اليدين للخلف، وخلفنا مئات من الطلاب تشهد الحدث الجليل، الذي سيصير فاكهة حديثهم في الأيام المقبلة.

تركنا ضباط حرس الجامعة أمام مكتب العميد للحظات قبل أن يدخل هو ويسمح لنا بالدخول.

كان مكتب عميد كلية الطب، عبارة عن نسخة مصغرة من القصر الملكي المصري للملك فاروق، على يمين المكتب انتصب تمثال صغير من مرمر منحوت على هيئة ملاك على الطريقة الرومانية، موضوعًا على طاولة مخصصة له من الخشب الماهوجني الأحمر المصنفر غير المطلي كنوع من الفن التجريدي، بينما استقرت خلف المكتب لوحة جدارية للفنان المصري العالمي شوقي زغلول، غير أن جمال المكتب الخشبي المصنوع من خشب السنديان غطي على جمال تلك اللوحة، ربما

لضخامته الشديدة التي جعلته يأكل نصف مساحة نظر الرؤية، ويخطف النصف الثاني من جمال تصميمه الحديث، ويبدو أن مصمم هذا المكتب هو فنان تشكيلي في الأصل، ففكرة أن المكتب عبارة عن أعمدة من الكتب يحمل الصغير فيها الكبير، حتى يستوي سطح المكتب في النهاية على شكل كتاب مفتوح على مصراعيه، هي فكرة فنان تشيكلي بلا شك.

حتى سجاد المكتب كان مبهرًا، بالإضافة إلى تلك الستائر الحريرية الأفغانية، والمكتبة التي تحتل الحائط المواجه للمكتب بأكمله، والتي تضيف للمكتب جمالًا ملحوظًا.

عندما رفع دكتور خالد رأسه من بين أوراقه وطلب من حرس الجامعة الانصراف، أحسست بالانفراج..

تمهل قليلًا وهو ينظر إلينا متفحصًا، كان يلبس بدلة رمادية اللون من الكتان، وتحتها قميص أبيض من الحرير، بينما تتحرك عينيه على صفحة وجهه بطريقة غريبة، حيث أن له وجه مستدير ممتلئ تعطي مع ذقنه التي يتوسطها طابع الحسن انطباعًا بالألفة، عكس عينيه الضيقتين المملوءتين بالخبث، فلا تستطيع تكوين رأي عنه قبل أن تتعامل معه.

لا نعرف كم مر علينا في وقفتنا تلك، ولكن قدمي قد تخدر بالكامل وفقدت قدرتي على المقاومة، وددت لو أني افترشت الأرض.

مددت يدي أسندها على يونس، فأزاح يدي بعنف، كدت أسقط على الأرض.

يبدو أن سيادة الوزير الدكتور قد لاحظ ذلك، عندها رفع صوته فجأة:

– ضيوف، كلكم هنا ضيوف مش بس الدكتورة اللي هنا ضيفة، لكن إنت كمان ضيف على الكلية والجامعة.

بدأ يونس يدرك أنه سوف يكون في موقف لا يحسد عليه لو رد علي كلامه، وربما ناله بعض الإهانة التي سوف تلتصق به للأبد.

وهو لا يريد من موقف كهذا أن يجعل من كرامته علكة بين الناس، يمضغونها في أحاديثهم.

وربما يتداولون في الجامعة كيف وبخ العميد الطالب الصعيدي من أجل الطبيبة الجميلة، عندما عايرها بأنها ضيفة رد عليه معايرته في الحال.

سكت يونس، من أجل كرامته وفي قلبه غصة ظلت ستظل تكبر ببطء كلما مر بها الزمن.

***

## في بلاط فرعون

للجامعات متطلباتها وحكاياتها التي لا تنتهي، لكن ثمة أشياء لا يجب العبث بها، لذا عندما صمت العميد صمتنا نحن كذلك، كنا لا نجرؤ على الحديث، ولا يستطيع أحد منا أن يرفع عينيه، أنا خفت أن

أفقد دراستي وأعود إلى بلدي تاركة بصمة سوء سلوك، ليس هناك أسوء من الطرد، أو الخروج من مكان أنت ضيف به نتيجة لسوء سلوك، فكرت بأمي وكيف أزف لها خبرًا كهذا، كنت أريد البكاء لكنى تماسكت حتى لا أبدو هشة.

على الرغم من سوء حالي، كان يونس أسوأ مني حالًا، العرق الذي تصبب منه جعلني أخاف مما سيحدث أكثر، وأفكر ما الذي سيخسره كي يخاف كل هذا الخوف.

كان الأستاذ الدكتور، العميد برتبة وزير، مدركًا بأنه صاحب القرار في تلك القضية، فعندما فرغ من صبره علينا، رفع رأسه يتفحص وجوهنا وهو ممسكًا بقلمه، قبل أن يدق به على سطح المكتب قائلاً:

– لو خرجتما من تلك الغرفة إلى منزلكما سيكون كرمًا مني نظرًا لحالكما، فمن أنتما في العالم كي يهتم أحد بكما، هل لو أصدرت قرارًا بفصلكما، هل ستخرج الصحف القومية تنادي بعودتكما تحت عنوان عودة المناضل والجميلة، أو الجميلة والفلاح الفصيح، ماذا تفضلين منهما يا دكتورة عاليا؟

– لا شيء من هذا يا دكتور، خطأ منا وإن العفو من شيم الرجال.

– أي رجال هؤلاء وأنتِ تطالبين بالحرب لعدم تحرك الرجال، هل تعتبرين أننا بلد متخاذل أم أنك لا تدرين ما تاريخ البلد الذي يستضيفك؟

– آسفة، خطأ لن يتكرر.

– أنا أضمن هذا جيدًا.

– أما بالنسبة لك يا يونس، فينتظرك ضيف خارج الغرفة، اخرج معه في هدوء لصالحك وعندما تعود من ضيافته أحسن السلوك، هنا جامعة وليست منبرًا للخطابة يا فصيح اللسان.

***

## في بلاط الوزير

كانت الساعة قد مرت كالدهر، عندما عاد دكتور خالد مرة أخرى إلى هدوئه وهو يلقي نظرة سريعة إلى أوراقه، أنظر للساعة المعلقة فوق رأسه، تمر الساعة وهو صامت، هل سيرهقه النظر إليَّ وأنا التي ما زالت واقفة في مكانها كما التماثيل الإغريقية؟ أود أن يفرج عني الآن أو يعطي أمرًا باعتقالي، فأنا لا أتحمل مرارة الانتظار، أي خيار سواه سأتقبله.

عندما خرج يونس من الغرفة لمحته بطرف عيني، فلم أستطع الاستدارة بشكل كامل خوفًا من دكتور خالد، كان هناك رجلين واقفين خارج الغرفة غير الحارسين اللذين أتيا بنا. حملا يونس من أكتافه كما يحمل الطير غذاءه، كلٌّ منهما من جانب كأنهما خائفان من أن يهرب بعيدًا عنهما، أو أنه مصدر غذائهما الوحيد في غابتنا البشرية، ثم أُغلِق الباب مرة أخرى، حتى لا أرى ما يحدث بعدها.

كدت أصرخ في تلك اللحظة، هل سأصبح مثل ما سمعت عن فتيات من قبل قد تعرضن للاعتداء من قبل شخصيات معروفة؟! أنا لا

أتحمل شـــيئًا كهذا. ماذا ســـوف أخرج حاملة من هنا؟ الخزي والعار والألم، الكوابيس بالتأكيد هي الأثر النفســـي الذي ســـوف أخرج به من هنا.

لو خيروني بين الضـــرب المبرح وبين تلك الوقفة التي تخيلت فيها كـل أنواع الخوف الأنثوي والإنســـاني، لاخترت الضـــرب ولكن دون جدوى، فلست صاحبة اختيار.

أتذكر كلام أمي، فبعد أن تبلغ الفتاة عمرًا محددًا في العالم، يتبدل كلام الأمهات في التوعية عن العالم المتوحش الممتلئ بالرجال.

كانت تقول لي مرددة مقولة سـمعتها إن أفضـل رجل في العالم، هو ذئب صبور.

الآن بت أعرف يا أمي، صـــدقت كل كلمة وأنا هنا في غرفة مغلقة مع رجل ضـخم البنية، له سـلطة قوية، لن يتم تصـديقي لو تحدثت عنه بسوء، وفي النهاية سيتم فصلي أو إيذائي لو رفضت.

رفع دكتور خالد رأســه مرة أخرى، وأخيرًا ابتســم ابتســامة هوليودية بنوعٍ من السـخف كمن يتم تصـويره، ورمى القلم من يده على المكتب، عاقداً حاجبيه وهو يسند ظهره للخلف موجهًا حديثه لي:

– ماذا تعتقدين أني فاعل بكِ؟

لن أجيب عن ســـؤال هكذا، هل جننت، أفعل كما فعل يعقوب مع أبنائه، أدله على مخاوفي، سـيقتلني لو عرف ما فكرت به خلال السـاعة

السابقة، ليس لشيء سوى جموح خيالي وتخيلاتي المريضة. يجب أن أنفي أي رد، قبل أن أجيب رد هو:

– الحمد لله، أنا رجل أخاف على سمعتي واسمي، هل تعتقدين أني أضحي بهما من أجل مشاكسة غبية مثلك؟! فلا تجمحي بخيالك، أريد منك خدمة مقابل أن تبقي هنا في الجامعة والبلد، أنتِ كاتبة جيدة، أنا أقرأ كل ما تكتبين في مجلة الجامعة، وأعلم أنك تبحثن عن فرصة للعمل في الصحافة، قرأت هذا في مقالك الأسبوع السابق، سأعطيكِ فرصة نادرة، سوف أجعلكِ تدخلين باب الصحافة من أوسع أبوابها وأهمها، قد دبرت لكِ وظيفة في إحدى الصحف القومية منذ أسبوع، وكنت سوف أستدعيكِ، ولكنك أتيتِ بنفسك.

تفاجأت حقًّا بكلامه، كيف عرف ما كنت أفكر به، وكدت أن أرفض عرضه، لكني وجمت، فمصير يونس كان واضحًا، هل أريد نفس مصيره برفضي، أما أقبل ويصير مصيري أكثر تعقيدًا.

– ولكن لماذا؟

– هل ترفضين؟

– لا أعرف على ماذا أوافق لأرفض.

– اخرجي من مكتبي الآن واتجهي لصحيفة الأهرام، خذي هذا الكارت فهناك من سيكون في انتظارك. شيء آخر، كل همسة تحدث في الجامعة يجب أن تنقل لي.

تسمرت مكاني دون حراك بفعل كلامه، ماذا يريد مني؟!

هل يحولني لجاســوســة بين زملائي، قام من مكانه واتجه نحوي، تسمرت من الخوف، كلما اقترب أكثر، اقتربت من الموافقة على طلبه، وكدت أصــرخ، أعطاني الكارت، ثم أمســك بذراع يدي الثانية، ارتعشــت، لفها خلف ظهري بعنف، كادت تخرج من مكانها، وهمس في أذني.

– لم يولد بعد من يعارضني يا دكتورتي الصغيرة.

ثم أزاح يده عني وترك ذراعيَّ حراً، وأشار نحو رأسي بأصابعه:

– ذلك الرأس الجميل! لا يريد أن يُفصَل عن جسده بسبب العناد، أليس كذلك؟

وأردف قائلًا: لبنان جميلة، أليس كذلك؟! هل تفضلين العودة لها؟!

وقفت حائرة ماذا أفعل، وهو في حقيقة الأمر لا يعطيني خيارًا آخر، لهذا يناديني بالصغيرة، لضآلتي بجواره، ماذا أفعل لو رفضت طلبه، هل أعود إلى لبنان؟ محال!

فتحت شفتيَّ دون إرادتي في هدوء وقلت:

–" موافقة."

ضحك دكتور خالد ضحكة عالية:

– وهل عندك خيار آخر يا دكتورتي الصــغيرة؟ غدًا معي وفي بلاط صاحبة الجلالة تنتظرك بطولات.

***

# خارج الأبواب

الانتظار قاتل لو كنت تنتظر في مدار مصيبة، هل تنقل لمستوى كارثة أما تدنو لمستوى ذكرى، عادل الذي كان ينتظرني خارج أبواب الكلية، نظر لي بغضب مباغت أول ما رآني، لكنه تحدث معي رغم غضبه. أخبرني أن الصوت الذي وصل لكل مكان في كلية الطب، وصل لمعمل التشريح أيضاً، فقد ميز عادل صوت صديقه يونس، ولكنه لا يستطيع الخروج، لكن حالة الهرج التي حدثت خارج القاعة، جعلت دكتورة المادة تنهي المحاضرة بأسرع وقت ممكن، وتسمح بالانصراف للطلاب خاصة أن الوقت قد اقترب من الانصراف.

هرول عادل للخارج لينقذ صديقه دون أن يدري فيما ورط نفسه، ولكن كان قد فات الأوان.

لمحنا عادل ونحن نصعد درجات سلالم الدور الأول من الكلية ونحن نتجه لمكتب العميد مع حراس الجامعة، وخلفنا عيون الطلاب تراقبنا.

كان واقفًا أمام باب مكتب العميد دكتور خالد، مع بعض الطلاب الذين انصرفوا وتركوه وحده عندما طالت المدة، رأى اثنين من رجال الأمن الخاصة بالجامعة، التي كان يعلم بوجودها ولكنه لم يصادف أو يحتك بأحد منهم يوماً ما، كما حالنا جميعاً.

عندما رأى يونس يخرج من المكتب بينهما مقبوض عليه، ابتعد بذكاء عن المكان وتاه وسط الحشود في الخارج، فما زال يستطيع من

مكانه مراقبة الأحداث، دون أن يتورط بها، فإذا بهما يأخذان يونس لخارج أسوار الجامعة، وسط عيون الطلاب التي تلاحقهم.

عندما وصلوا لبوابة الجامعة، التف حولهم رجال الأمن الجالسون على البوابات أيضاً، وصاروا جماعة كبرى من الحراس، فعلم أن يونس ضاع بين الرجلين.

خرج يونس في هدوء معهم، وكأن أحدهما يملي عليه تصرفاته، يجعلك تتعجب وتتساءل عن هدوء رد فعله، كيف كان ثائرًا منذ لحظات لمجرد كلمات، والآن خانعًا بتلك الطريقة أمامهم!

أخبرني عادل أنهم استقلوا سيارة ملاكي من النوع الحديث للشرطة، لا تحمل أرقامًا ولا حروفًا في المقدمة يجلس سائق يلبس ملابس ميري، انطلق بالسيارة في أقل من دقيقة ليخطو في مسار جديد ليونس.

لم يعرف عادل ماذا سيفعل الآن؟

هل يجري على الهاتف يدق أرقامًا لمنزل الحاجة بخيتة؟ فهي الوحيدة في بلده التي تملك هاتفًا، والتي ستنادي بدورها على أم يونس، هل يتصل ليخبر أمه أن ابنها الوحيد قد أخذه البوليس بسبب شجار في الجامعة، ولا يعرف أي نوع من البوليس بالتحديد قد أخذه؟ ولكنه يخبرها كي ينفي المسؤولية عن نفسه.

أم يصمت ليرى مجريات الأمور للنهاية حتى يأتي السؤال لعتبة بابه، وماذا يفعل غير ذلك؟!

هل سيتقمص دور البطل، وينطلق خلف تلك السيارة الميري، بأحد

سيارات الأجرة، ماذا سيفعل لو عرف المكان؟ سيأتي بجيش من الناس ويقتحم المكان ويخلي سبيل يونس، أم سيقوم بثورة في سبيل صديقه؟! ربما ينتهي الأمر به بجوار صديقه في ذلك المكان المجهول.

لكن هناك خيار رابع لم يتردد كثيرًا في أنه الأفضل، أن ينتظر الحقيقة مني، ليبني عليها القادم، معنى أني لم أخرج مع يونس أني ما زلت هناك، وأحمل الخبر اليقين.

اختار البقاء أمام الباب الخارجي للجامعة، ينتظرني في الخارج بعد ما انفضت الحشود، كي لا يجذب عيون حراس الجامعة نحوه.

مر الوقت وما زلت في الداخل، خاف أن أكون قد خرجت من باب خلفي أو ممر سحري، هذا نوع من الشك الجنوني، ولكنه شك مُستَحق بعدما حدث، فأخذ لفة حول الجامعة، ليرى أن كان هنالك أي أبواب أخرى، لكنه عاد لمكانه ثانية مطمئن البال، ينتظر خروجي.

دقت الساعة الثالثة بتوقيت القاهرة وحان وقت الخروج، صوت ساعة الجامعة يعلنها صريحة، ولكني كنت ما زلت محتجزة داخل المكتب، أدرك أن هنالك خطبًا ما، هل هناك حديث ما بيننا يلزم كل هذا الوقت، أم أنه عقاب من نوع خاص؟!

خاف عادل أن أخرج في أي وقت لو تزحزح من مكانه، فالتزم عدم الحركة، وظل هكذا حتى خرجت إليه، جالسًا القرفصاء أمام الرصيف الموازي لباب الخروج. يبدو أني كنت في نيران جهنم! وخرجت، فقد كان وجهي مكفهرًا، وعيوني أصبحت دامية من شدة حمرتها، وبشرتي

باهتة كأنها فقدت ماءها، عندما نظرت لنفسي في مرآتي الصغيرة أصابني القلق والخوف.

أعرف تلك المشاعر، تملكني نفس الشعور عندما قرأت أخبار صفحة الحوادث لأول مرة في حياتي.

جرى عادل نحوي بسرعة، لم يخَف أن تراه عيون أحد الجواسيس في الجامعة لصالح دكتور خالد، فينضم ليونس في محبسه، فضوله وحبه لصديقه أقوى من خوفه، واندفعت نحوه أنا كذلك، فقد كان الوحيد الذي ينتظرني وأنا أعلم أن أمري لا يهمه، وإذا كان يرجو مني إجابة تطمئنه، فقد كنت أرجو منه هو أن يطمئنني وجود أي إنسان يهتم لأمري، ولكن وجهي كان يوحي بكارثة.

كنت واجمة عندما بدأ عادل يخاطبني بلهجة حادة، فسألني بشكل مباشر: هل تعرفين أين أخذوا صديقي؟

نظرت له في هدوء وقلت: "لا". وأنا حقيقة لا أعلم.

"لكنه بالتأكيد ليس سعيدًا، مثل حالي الآن".

انفعل عادل:

– أنتِ حرة سعيدة أما تعيسة، ولكنكِ تستطيعين التجول، أما هو فصار مسجونًا، ألم تخطئا الخطأ نفسه؟!

– ليس هناك عدل في هذا الدنيا، أليس كذلك؟

– يكفي فلسفة فارغة ومغالطات كلامية، أين يونس؟ لم تجلسي كل هذا دون فائدة.

– لا أعرف حقًّا ما فائدة جلوسي كل تلك المدة، مرت مائة ألف عام وأنا هناك.

– إذن اعرفي وأخرجيه، تلك مسؤوليتك، فأنتِ من تسبب في تلك الكارثة، وأنتِ الوحيدة التي تستطيع إخراجه.

– أوصِلني لجريدة الأهرام يا عادل، فأنا لا أقوى على ذلك، وعندها ستفهم كل شيء.

***

## في بلاط صاحبة الجلالة

في الطريق نحو الجريدة، رافقني على مضض، وكأني السبب فيما حدث، كان يزيح يدي بقوة كلما وضعتها على كتفه، لأستند عليه من التعب أو التوقف للراحة أثناء السير، يذكرني بصديقه في هذا الفعل، ويبعث العديد من الرسائل التي لا تصلني في كلامه.

كنت لا أريد شيئًا سوى الفضاء الواسع أمامي في الشارع، فأنا أكره الضيق والأماكن الضيقة؛ تذكرني بماضٍ أرغب في محوه، ومع ذلك اتسع خوفي كلما اقتربت من الجريدة.

دقت الساعة الخامسة مساء عندما وصلنا للجريدة، حكيت له في

الطريق ما حدث، ولكني أخفيت جزء أنني صارت جاسوسة بين الطلاب، وأنه السبب في دخولي الأهرام، وأنا أعي خطر ذلك علي، ولكنَّ جزءًا مني قرر البوح، بالذل الذي تعرضت له، حتى لو أصابني مكروه يومًا ما، يكون لي صديق يأخذ قصتي ينشرها بين الناس.

أطلب هذا منه في عقلي الباطن، وأنا كل ما يجمعني به أنه معي في نفس الدفعة، الكلام في ظروفي تلك كان أفضل الحلول، لكنه فهم قصتي بأنها محاولة منى كي أبرر موقفي بعدم التورط في سجن يونس، المدهش أن خروج الأفكار من رأسي وقتها ساعدني بدلًا من انفجاره، وقد بدأت الوردية الثانية من الأفكار في رأسي عملها، عن حرب الصحافة التي سأخوضها في الجريدة.

الحالة التي خرجت بها من مكتب العميد، قد تسربت ووصلت لعادل، فقد بكيت عدة مرات في عقلي، كلما تذكرت ما حدث، وما حدث لي أنا ويونس، لم يعذبنا بالسوط أو يقطع من أجسادنا بالسكين، ولكننا صرنا نعرف حجمنا في العالم، وأننا أضعف من جناح بعوضة، كم هذا صعب! أن تحيا وأنت تعي أنك ضعيف بهذا القدر، فلا تقدر على الحلم ولا تحمل أملًا، لأنك تعرف مقدار نفسك الحقيقي، فقدنا أنفسنا في هذا اليوم وصرنا عبيدًا لليأس.

أصبح يشفق عليَّ وعلى حالي، وكيف أنني الآن بلا خيار.

أشفق عليَّ من هذا التهديد الدائم بالرحيل، وخاصة الآن دون شهادة ودون أهل، ولكن ما ذنب يونس في كل تلك الأحداث، خطأ بسيط من كلٍّ منا، نقاش حاد تحول لساحة حرب، انسحب كلا

الطرفين من الحرب، ولكن ما زالت رحى الحرب دائرة.

أدرك عادل أنه أصبح في حيرة من أمره، ليخبرني أمرًا كان ضروريًّا أن أعلمه قبل حربي مع يونس.

تنهد وأخذ نفسًا عميقًا، وكأنه سيحكي حكاية طويلة:

"عاليا، إن الإنسان هو الكائن الأكثر تعقيدًا على وجه الأرض، ولكن الدوافع النفسية هي سبب صراعه الأبدي. فيونس يملك خلفية سيئة عن القومية العربية وكل ما يصحبها من شعارات رنانة، فقد أباه منذ سنوات وهو رضيع أو قبل أن يولد، لا يعرف وقت وفاته بالتحديد، في إحدى تلك الحروب التي قدمها الجيش المصري باسم العروبة، فقد كان أبوه قوميًّا عربيًّا حد التطرف، وفي تلك الحقبة كان التطوع العسكري للجيش هو الاختيار الأمثل بالنسبة له. وكان نصيبه من تلك العروبة حرب اليمن التي أخذت روحه فتحول اسمه للقب البطل الشهيد، والذي مات ودفن هناك، لم يرَه يونس في حياته، كل ما يعرفه عن شكله هو صورة كبيرة معلقة على جدار أحد حوائط المنزل بالزي العسكري المصري، محاطة بخط أسود من جهة اليمين".

توقفت عيني عن الرمش لدقيقة، لن أبكي الآن، تحملت كل هذا والآن أبكي؟ وتخرج دموعي لتشهد المأساة، أخذت أفتح عيني على آخرها، كي لا تغمض وتهبط دموعي على خدي، سأمثل القوة لنهاية القصة، أكمل قصته وهو متماسك، وأنا أرتعد من البرد، ولا أرى أحدًا غيري يرتعد في الشارع، هل أنا وحدي أرتعد من البرد المحيط بقلبي؟ أخرج عادل من جيبه علبة مناديل ورقية قدمها لي وهو يتابع حديثه قائلًا:

"صــعب أن تولد وأنت بلا أب، كل كلمات الحب والمواســاة التي يقدمها الناس، تنتهي مع أول أزمة حقيقية ســواء مالية أو عائلية. المعاش الذي قدمته الحكومة لا يكفي سوى قوت اليوم، ولكنه لا يجعلك مطمئنًّا للغد أو مستور الحال، فالخوف الذي يخلفه فقدان الأب وحده، يجعلك فقير النفس.

إن وجهة نظر يونس لها ســبب، إن المبادئ والآراء لا تهبط عليك من السماء ولا تعتنقها من الكتب، بل هي خليط من تاريخك وماهيتك، والبيئة المحيطة بك، وظروفك واستعدادك النفسي.

إن كان هناك خدمة يمكن تقديمها له الآن، فهي أن يصــبح حرًّا طليقًا ثانية، ليس فقط لأنه لم يفعل شــيئًا يســتحق ذلك، ولكن لأن أباه قدم روحه فداءً لتلك البقعة من العالم، ويجب أن يحافظ الجميع على كرامة ابنه وحقوقه تكريمًا له".

شعرت كم كنت مخطئة في حق يونس عندما نعته بالجبن، وأشفق قلبي عليه من يتمه، ربما لو علمت ســبب رأيه لعذرته، وما تطور الأمر لتلك الدرجة، إن الحرب الأولى في العالم قامت عندما رفض الإنسان أن يفهم وجهة نظر الآخر، أو يتفاهم مع من اختلف معه، فلكل شــخص رأي مختلف عن الآخر، من هنا جاءت الحروب، حتى إني صرت مؤمنة أن الحياة نفسها سوء تفاهم كبير.

آه لو عرفت بقصــته قبل أن يحدث ما حدث، لتوقفت قبل البداية بخطوة، وما كنت سبباً في فقد زميل دراسة لحريته.

"أعدك أنه سيخرج في الغد، لن أتحمل العيش مع ذنب كهذا، حتى لو أصبحت أنا مكانه".

لا أعرف بأي ثقة قلت ذلك وكأني أملك زمام الأمر، ولكني قلتها وسأفعلها.

أدرت ظهري له وأنا أرتعد من البرد، وصعدت درجات السلالم العالية، التي توحي لك بمشهد أحد القصور الملكية، وبأنك ذاهب من أجل مصيري، الأهرام هي القصر الأعظم في الصحافة، لا أدري لماذا يسمي الناس الصحافة بصاحبة الجلالة، هل لقوتها في خلق الآراء والرؤى، أم لأنها قريبة من أصحاب السلطة والنفوذ؟ هي بالتأكيد السلطة التي أحتاجها حاليًّا بجواري، فمتى انقلبت الصحافة على أحدهم سحقته سحقًا، ومتى أحبته رفعته قدرًا.

درجات السلالم توحي بمزيج من الكبرياء والثقافة، هل تعلم من خطا عليها؟ هل تذوقت خطوات عباس العقاد، نجيب محفوظ، يوسف إدريس، يحيى حقي، إحسان عبد القدوس، قاسم أمين، يحيى الطاهر، محمود السعدني، نزار قباني، محمود درويش، الأبنودي، فؤاد نجم، وغيرهم الآلاف من المبدعين، يجب أن لا تُمسح تلك السلالم، كي تحتفظ بخطى كل هؤلاء العظماء الذين مروا من هنا.

كم حلمت كثيرًا بتلك الخطوة في حياتي، ولكن ليس بتلك الطريقة، أعلم أنه يوجد شخص ما في الأعلى ينتظرني ليستقبلني كما تم تبليغي، لكني كنت أفضل البداية بالاختبار كما جميع المحررين

الصغار، ثم أتدرج في المناصب، ولكن الفرصة قد لا تأتي إلا مرة واحدة في العمر.

وقفت أمام رجال الأمن، قدمت الكارت وأخبرتهم اسمي، مستدركة أن هناك موعدًا مرتبًا مع أستاذ علي كما أبلغني دكتور خالد.

رفع رجل الأمن سماعة الهاتف الداخلي وتحقق من ذلك، وسمح لي بالدخول، بعدما أخذ مني بطاقتي الشخصية.

صعدت الدور الأول من الجريدة أبحث عن أستاذ علي، الرجل صاحب الاسم على الكارت، وهو رئيس قسم الأخبار، وجدته كما أشارت لي إحدى الصحفيات، جالسًا على مكتبه منفردًا بكوب شاي بالنعناع يطفو على السطح، مع شطيرة من الجبن الأبيض يقضمها بنهم، وقصاصات ورق لطبعة الغد يطالعها في اهتمام.

نظر لي نظرة غريبة، عندما دخلت مكتبه، لم يكن يتفحصني أو يقرأ وجهي، بل يبحث عن شيء ما فيَّ يجذبه، وقبل أن أعرفه بنفسي وأدبغ الدبغة المعتادة عن نفسي، كان قد قاطعني بسؤال صريح: موهوبة أم مسنودة؟

– لا أعرف.

– إجابة نموذجية، سوف نضعها في ملحق الثانوية العامة للإجابات النموذجية.

– ولكني لا أعرف حقًّا، جُلُّ ما أعرف أن هذا حلمي بين يديك.

– جيد، إن الموهوب شـــكاك دائمًا، لا يثق في موهبته وتلك نعمته ونقمته، لذا فإن إجابتك ممتازة.

– أعتقد أني خليط بين الاثنين.

– غدًا سنعرف ذلك، في المكتب المجاور لي هناك صحفي اسمه ياسين، هذا هو مرشدك، كوني معه واستمعي لتعليماته.

أشار لي بشطيرة الجبن التي يمسكها مشيرًا لي بانتهاء المقابلة، ثم انكب ثانية على الشاي والعمل.

خرجت من مكتبه بخطى يثقلها الحياء والغباء، لم أفهم جيدًا ما دوري مع ياســين، وخفت من اقتحام مكتب أحدهم دون ســابق معرفة، فتلصـصـت خلف زجاج المكتب أشـاهده، رأيته وهو منكب على الورق بتلك الطريقـة التي تجعلـك لا تتبين وجهـه، كـأنـه غـارق يبحـث عن جزيرته الخاصة للنجاة في تلك الأوراق.

قررت الاســتئذان والدخول، ثم وقفت بباب مكتبه المفتوح، أحاول أن أجد الكلمات المناســبة للبدء بالحديث قبل أن أطرق الباب، لكني فشلت حتى عطست دون قصد فرفع رأسه ليجدني.

يقولون دائما أن هناك نظرة أولى من كل شــيء، كانت هذه أول مرة ينظر لي أحـدهم بتلـك الطريقـة، أعلم أني جميلـة، وجـذابـة أكثر من كوني جميلة، أقابل كل يوم نظرات إعجاب ومديح، وكثيرًا من نظرات التلصــص والمضــايقة، لكن ياســين نظر نحوي بشــيء من الحنين والاستهزاء.

كأنه وجد ضالته فيَّ، وجمت من نظراته تلك، لا أريد لقلبي أن يقع فريســـة الغرام وأنا في هذه الحالة، فقررت وقف حالة تبادل النظرات الصامتة تلك، فتوجهت إليه قائلة:

– أنا عاليا، المتدربة الجديدة معك.

– وأنا ياسين جاد الرب الصحفي المعروف.

– أعرف، أخبرني أستاذ علي باسمك، وطلب مني القدوم إليك.

– جيد، كنت في انتظارك منذ أن أخبرني لأتعرف عليكي.

– ممتاز، بماذا سأبدأ؟

– هناك تحقيق في جريمة قتل لاثنين من العشـــاق في قرية في الصعيد، ما رأيك أن نكتبه سوياً؟

– أنا معك.

– جهزي حالك، نسافر غدًا صباحًا لتلك القرية التي بها التحقيق، في محافظة المنيا.

هل يمكن تأجيل تلك الســـفرية للظهر فقط، لدي مشـــوار يتعلق بمصير إنسان في الصباح.

– لا مشكلة، سأكون في انتظارك في موعدنا.

مددت يدي أودعه وأرحب بتلك البداية، ندمت عندما أمســـك بها في لين لم أعهده من قبل، وابتســـم لي كمن يرجو مني قبول عاطفته،

ابتســـمت، وأنا أرد له الابتســـامة كما تعودت، ولكن من داخلي كنت أبتسم بشدة.

***

## الأمس

صعب أن يلتقط رأسك النوم، وأنت تشعر بالذنب تجاه شخص ما، ويزداد الأمر تعقيدًا عندما تجهل ما الذي أصابه في تلك الساعة بسببك.

أعرف قصـة عن شـخص ظل بلا نوم لمدة عام كامل، بسـبب ذنب اقترفه في حق شـخص يعرفه، وانتهى به الأمر في مصـحة نفسـية، كل الأماني التي تســكنني وتتمناها نفســي الآن، أنه لا يتعرض للتعذيب أو الإهانة بسببي، ويكون مجرد تحقيق عابر معه وسيمر.

كنت أتقلب في ســريري المتهالك في هذه الليلة أكثر من أي ليلة أخرى، لا جانب فيه مريح، أكره المراتب القطنية بشـدة، كم أتمنى أن أشـتري مرتبة ثانية غير التي أنام عليها، وتكون مخصـصـة للعلاج الطبي لفقرات الظهر.

إذن لا نوم يصــحبني في تلـك الليلـة الثقيلـة، فلنقرأ كـل الكتـب المؤجلة، مع الاستعانة بموسيقى هادئة، الليل طويل، ولا أعرف ما الذي سأقرأه بالتحديد، هل نيتشه مناسب لوقت كهذا، أم سيدفعني للانتحار؟ لن أقرأ كتبًا لن تفيدني، ســأدرس، لو بدأت في عمل ماجســتير متأكدة

أني ســأنتهي منه قبل بزوغ النهار، ولكني لم أحصــل على شــهادة البكالوريوس بعد، ما كل هذه الأفكار؟

كنت محملة بجبال من اليأس والندم، خاصــمني النوم ويبدو أن القيامة قد قامت بداخلي من كثرة البراكين التي قررت أن تفتح فوهاتها لتصــب الحمم في جوفي، أريد أن أتقيأ حتى يخرج قلبي من صــدري وأرتاح أو أشرب كي أنسى، لكني لم أنس ولم تفقد النيران لهيبها.

وماذا لصــعلوكة مثلي أن تشــرب، شــاي أم قهوة؟ أتذكر أول فنجان قهوة شربته في حياتي كنت ضيفة في بيوت أحد الجيران، وعندما عدت للمنزل أخرج أبي حزامه من بنطاله، وضــربني به حتى تقيأت كل رشــفة قهوة شربتها.

يجب أن أتذكر حادثًا هكذا في تلك الليلة، هذا ما ينقصــني! أقف في الشــرفة أرقب الضــوء عندما يبزغ، سأسـرقه وأضـعه بداخلي كي ينير طريقي، كم أصبحت معتمة من الداخل!

اعتلى آذان الفجر في المســجد المجاور، وتلك إشــارة جيدة أن ما تبقى بسيط، ربما لو نزلت أتمشى من هنا إلى الجامعة أصل في موعدي.

لا أدرك كم من الوقت يتطلب الوصــول من حي الســيدة زينب إلى جامعة القاهرة مشيًا على الأقدام، لا أعرف بالتحديد لكني سأدرك ذلك الآن.

أحب اللون الأسود عندما أفضل الهروب من العالم فهو يخيف البشر ويصــدهم عني، يجعلهم يظنون أني مكتئبة أو مجنونة، وأحب اللون

البني أو الأخضـــر القاتم عندما أكون بين حالتين، ولا أريد أن تطغى إحداهما على الأخرى، في النهاية تظل الملابس أستارًا تخفي جرائم لا نريدها أن تظهر للعلن.

لا أهتم كثيرًا بملابســـي كما يظن الناس، لأني في نظرهم ألبس ملابس متناســـقة للغاية، تبرز جمالي، ولكني في الحقيقة أهتم بألوان ملابســـي ومدى توافقها مع حالتي، عندما أحاول أن أخفي كل شـــيء أو أظهر شيئًا ما.

نهضـــت من نومي الذي لم يأتِ، ألقيت بعض الماء على وجهي ثم ارتديت قميصًا أسود اللون مع بنطال أسود، هل سيكون ملائمًا مع حذاء أسود، سأكسر كل هذا بشال أبيض مخطط باللون الأسود، يكفي كل هذه الألوان السوداء، فأنا لا أحتاج فوضى أكثر مما في عقلي.

نزلت درجات السلم في حوالي الساعة الخامسة صباحًا، استغرب حارس العقار من هذا التصـــرف، دائما ما يتعامل معي وكأنه صـــاحب البيت وليس مجرد حارس، ينظر لي بطرف عينيه بنوع من الاشـــمئزاز، وهو يتوضأ في الحوض الموضوع في مدخل العمارة للصلاة، يستغفر الله بصوت عالٍ كي أسمعه، أعتقد أنه يؤنب نفسه بأنه قبل بأن أسكن في هذا البيت، قبل بي لأني فتاة مغتربة ووحيدة، وللسبب عينه يؤنب نفسه.

طلبت منه أن يفتح لي البوابة قبل أن ينخرط في الصلاة:

– أصبحتِ تخرجين لصلاة الفجر؟

يستهزئ بي، لن أجيبه، يكفي ما بي، لن أفتح جبهة ثالثة معه في هذا الصباح، على مضض فتح لي البوابة وتركني للمجهول الضبابي.

كنت قد تركت المدينة الجامعية وهي أفضل حالًا وأفضل طعامًا وأقل كثيرًا في الإنفاق، بسبب مواعيد الدخول والخروج والتلصص الذي يستهوي بعض الفتيات، فقررت الخروج منها والبحث عن مكان خاص يناسب إمكانيتي المادية، ولكني وجدت الموبقات ذاتها ما عدا الاستيقاظ مبكرًا.

الضوء لم يهرب بعد من خيوط الليل المنسوجة حوله، ما زال تائهًا هناك، لكنه يعرف أن لكل ليل نهاية مهما كان محكمًا، وسيعرف كيف يهرب مهما طالت حبسته، لم يكن الجو باردًا ولكني أكره الضباب، كانت نسمات سبتمبر في بدايتها وما زال مبكرًا أن يقول أحدهم بدأ الجو يتحسن.

أحب الخريف في مصر، فهو أجمل فصولها، ولكن أحب الشتاء أكثر لأنه يذكرني بلبنان، لا أعتمد أخبار الأرصاد في إعلان فصل الشتاء، سأنتظر موعد قدس الأقداس كما كان يفعل المصريون القدماء، وعنده يبدأ حقًّا فصل الشتاء، لكن الجو به لسعة مثيرة للرعشة، منذ الأمس فقط وأنا أرتعد وحدي، أخذت أرتعد كلما مررت من مكان موحش، وأعود هادئة بعد تخطيه، أطمئن نفسي بأن الله معي.

وصلت الجامعة ولا أعرف كيف وصلت لهناك، تحول حذائي للون الرمادي، وما زلت أرتعد كلما تذكرت القهوة التي شربتها صباحًا، والضباب الذي مررت به، وحكاية يونس ووالده، والبرد الذي يسكن

قلبي، رفعت يدي لأرى الساعة، أدركت أنني استغرقت ساعتين في الطريق، كنت أتوقع أقل من ذلك، لكن الوقت ما زال مبكرًا للدخول، فحتى أفراد الأمن ليسوا موجودين على البوابة، فالنهار لم يأتِ بعد.

إذن لا حل سوى الانتظار، وأنا أكره الانتظار، بعض الناس تقضي عمرها في انتظار الفرج، وهي لا تدري هل سيأتي من تلقاء نفسه، أم يجب أن تذهب هي إليه! ما زال الوقت مناسبًا لإنقاذ يونس، لكن هل أستطيع، وماذا يجب أن أقدم لينجو؟

المقهى البلدي المجاور يفتح قبل الجامعة، هذا ممتع، المزاج فضلوه عن العلم، كان حولي حفنة من الباعة والعمال استيقظوا جميعًا للسعي والعمل إلا أنا، استيقظت للعراك من أجل إنقاذه.

انتظرت جمًّا، حتى ظننت أن هذا الوقت لن يمر، توقفت العقارب عن المشي في ساعتي، كانت تزحف كلما نظرت لها فقط، تحتاج لطبيب مختص بهشاشة العظام، وأنا أكره أطباء العظام.

عندما دقت الساعة الثامنة، أحسست بالانفراج، ودخلت الحرم الجامعي أهرول لا أمشي. كان دكتور خالد قد وصل إلى مكتبه في نفس دقة الساعة الثامنة، فهو رجل شديد الالتزام، وأنا كذلك عندما يتعلق الأمر بحياة شخص ثانٍ. وجدني على باب مكتبه، ظن أن هناك خطبًا ما بي أو حدثًا مستعجلًا في الجريدة بالأمس، رفع حاجبه الأيمن يستفهم وأنا استعرت الصمت منه في هذا الموقف، ففتح باب المكتب ودخل وتركه مفتوحًا من أجلي لأدخل.

– أخبار مستعجلة أم كارثة، أخبريني يا صغيرة؟

– ليس الأمر كذلك.

– ما الموضوع إذن يا بنت؟

– يونس ليس له ذنب يتحمل وحده ما جرى، يجب أن يخرج حتى يمر الأمر دون إثارة الشبهات.

– ولكن لا شيء يثير الشبهات فيما حدث يا صغيرة.

– الحديث في الجامعة مترامي الأطراف منذ الأمس، بما أني قد خرجت من تلك الإشكالية بتلك السهولة، فيجب أن يخرج هو الآخر بالسهولة نفسها، وإلا صارت الشبهات حولي، ولن يحدثني أحد بعد اليوم.

– تفكير ذكي يا بنت.

– وكذلك أريد منه خدمة في أول تحقيق، فهو من مواليد الصعيد من تلك المحافظة التي وقع فيها الحادث الذي كلفت بالتحقيق فيه.

– حسنًا، سأفعل ما بوسعي.

– متى يخرج إذن؟

– لقد خرج بالأمس يا بنت.

تركني ورحل نحو محاضرته، تعلو وجهه ابتسامة مملوءة بالاستهزاء، بعدما صعقني وأسعدني بتلك الإجابة في الوقت ذاته.

خرج بالأمس، وأنا التي لم تعرف طريقًا للسكينة طوال الليل.

صـــرت كالمجنونة وأنا أبحث عن عادل في كل الأنحاء في الكلية، ليؤكد لي الخبر أو ينفيه.

ولأني لا أحفظ جدول فرقتي بشـــكل جيد، ذهبت نحو المدرجات أبحث عن الفرقة الخامســـة بالترتيب، فوجدت عادل في أول صـــف في المـدرج ب، تعرف الفهود فريســـتهـا جيـدًا وتعرف كـذلـك كيفيـة الانقضـــاض عليها، هكذا كنت معه، في ثوانٍ كنت في وجهه، أرفع حاجبي وأسأله بنوع من التلهف:

– هل خرج يونس حقاً؟

– نعم بالأمس.

***

## كسر المحظور

أصـــبحت أكســـر كل المحظورات دفعة واحدة، لا أعرف ما جرعة الشـــجاعة التي شـــربتها تلك، هل القهوة هي الســـبب؟ تارة أخرج في الفجر، وتارة أذهب لبيت شباب عزاب بمفردي في منطقة شعبية، باقي أن أنضم للحزب الشيوعي وأدخن السيجار، نسيت أنني أدخن بالفعل.

أردت التأكد من خروج يونس بنفســـي، ســـأذهب إليه في مســـكنه، جررت عادل من يده كما أفعل معه حاليًّا كلما رأيت وجهه، ليأخذني

إليه، لم يدرِ ما سر اهتمامي به، فقد خرج الآن ومر الموقف بسلام.

ركبت معه سيارة نقل جماعي، لأحد أحياء الأزبكية، لأجد البيت الذي يسكنان فيه عبارة عن هيكل أسمنتي آيل للسقوط في أي وقت، مدار سلم ضيق لا يتسع لفردين معًا، وشقة أصغر من أن توصف، لكنها مرتبة ومنظمة، وتبدو نظيفة، وهذا ما استبعدته من عقلي كونهما رجلين وحدهما.

يونس كان نائمًا في سبات عميق نتيجة ما حدث له، فاقتحم عادل عليه سباته وأفزعه، قائلًا:

– عاليا هنا.

سمعته وهو يقول:

– ماذا تفعل تلك المجنونة هنا؟ هل تجلب مشكلة جديدة معها؟

ابتسمت وقلت في سري: في بالي أن أطمئن عليك، ليرتاح ضميري.

خرج يونس عليَّ بملابس النوم، ليست بهذا السوء فقد كان يرتدي بنطلونًا من القطن باللون الأسود مع قميص بيجامة خضراء، ملابس الرجال في المنزل دومًا غير متناسقة، لكن يونس كان يبدو كأنه تائه ومندهش لحضوري أكثر، وهو مغتاظ مني في نفس الوقت، يعتقد أنني السبب فيما حدث له، وأنا لا أعلم سبب ما حدث لنا.

ألقى عليَّ السلام وجلس في الكرسي المقابل لي.

– ماذا تفعلين هنا؟

– أطمئن عليك عزيزي، لم أعرف للنوم طريقًا قبل أن أطمئن عليك.

سكت يونس من تأثير تلك الجملة عليه، تأثير الكلمات والحروف علينا عجيب، فالنفس البشرية أرق من فراشات فبراير، كل ما يمر عليها يطبع بداخلها ويغيرها.

تحول الغضب على وجهه لدهشة، وأدرك عادل الموقف، فسألني عن نوع مشروبي المفضل، فطلبت قهوة مضبوطة، دخل يصنعها في هدوء، وساد بيننا السكوت.

دخل وخرج بثلاثة فناجين من القهوة، وبعض المقبلات من المخبز للضيافة وبعض من الجوافة والموز، يبدو أنه وضع كل ما يجده في هذا المنزل الرجالي البائس في أطباق وقدمه لي، قبل أن ينطق أحدنا بأي شيء.

رد عليَّ يونس بعد أول رشفة من القهوة، وقد تملكت منه السكينة والهدوء، كأنه استوعب سؤالي الآن فقط قائلًا: أنا بخير يا عاليا.

– كنت قد نسيت السؤال، طمئني هل تعرضت للإهانة؟

– لا، فقد تركوني في زنزانة انفرادية طول اليوم، وأطلقوا سراحي ليلًا، بلا تحقيق وبلا هدف.

– غريبة!

– لا تستغربي، دكتور خالد ذكي يعرف مدى تأثير أي فعل على سمعته وسط طلاب الجامعة، وهو طموح ويريد الوصول لأبعد من ذلك.

– معك حق، أنت تفهم في معادن الناس بشكل جيد.

ابتسم في غبطة، وهو يكمل قهوته، وفرح برأيي فيه، فعاد لصمته وأنا أتأمل شقتهما في صمت.

كانت الشقة قديمة، ألوانها باهتة ومتسخة، بينما تحول بلاط الشقة الأبيض المزركش بفعل الأوساخ للون الرمادي، كذلك فعلت الكراسي المتسخة التي نجلس عليها الآن بفعل الزمن وعدم التنظيف، يبدو أن لونهم في الأصل كان ذهبيًّا لكنهم تحولوا للون الأخضر، وترتيبهم في مدخل البيت مباشرة كي يجدوا ما يستريحون عليه، هكذا عقول الرجال أول ما يبحثون عنه الراحة.

اطمأنت نفسي، عندما ذقت القهوة على مستواهم في الطبخ، وانفرجت أساريري من الطمأنينة، لأني لن أحتاج لغسيل معوي بعد القهوة، لكن سبب فرحتي الحقيقي وصول يونس لبيته سليمًا معافى لينتهي إحساسي بالذنب، عندها سكنت الطواحين في عقلي.

جلس عادل بيننا فأشعل الجلسة ضاحكًا على ما حدث، استلمني استهزاءً بدور الثورية، ضحكت كثيرًا على طريقته في تقليدي ولهجتي الخفيفة، التي بدت وهو يقلدني كفتيات الضيعات الشمالية، أحب خفة دم المصريين.

تجاذبنا الحديث عن الجامعة والأحوال والكتابة ومجلات الحائط والسياسة، نضحك على ما حدث ونبكي من الضحك مما نخاف حدوثه، فأخبرته عن التحقيق المكلفة به، وعرضت عليه أن يذهب معنا

لتلك القرية، بعدما علمت منه أنه من نفس المحافظة التي ينحدر منها، ليس فقط لأنه يعرف طريقها بالتأكيد، وأنه كونه من أهل البد سيفتح لنا الأبواب المغلقة، ولكن أيضًا كنوع من التغيير والنزول لإجازة مدفوعة المواصلات من الجريدة، مساعدة لنا في التحقيق، وللتعويض عن ما حدث له سابقًا وفتح صفحة جديدة معه.

وافق يونس دون تردد، مع استغراب عادل المستمر من الوضع برمته، فكان يرفع حاجبيه بعد كل جملة، فأوضح أنه كان يخطط للسفر للمنيا اليوم بمجرد استيقاظه، ففي زنزانته أدرك أن أمه هي أهم شخص في حياته، ويريد أن يعود لحضنها في أقرب فرصة، وأن وجوده بجوارها هي الحياة بذاتها.

قبل أن ينهي فنجانه، استعجلته كي لا نتأخر على ياسين جاد الرب الصحفي المعروف، كما يعرف نفسه بغرور واضح، وافق يونس وقرر الاستعجال حتى لا يهبط الليل علينا في السفر، فأخذ الفنجان بيده ودخل غرفة النوم يبدل ملابسه ويحضر حقيبته، فهو يعرف أنه كلما كان الوقت مبكرًا كان أفضل، لم تمر ربع ساعة، وكان قد انتهى، هكذا هم الرجال في التحضير للخروج.

تركنا الفناجين متسخة لعادل مع بواقي الطعام، ونزلنا مسرعين قبل أن تلتهمنا ساعة الذروة، ويصعب علينا إيجاد سيارات توصلنا للجريدة في الموعد المحدد.

الزحام بدأ عندما هبطنا نحو الشارع، تكفل بأن نقضي وقتنا في تفادي التخبط أو الحوادث، فكان يحوطني بنوع من الحماية، يلف

ذراعيه حولي دون أن يمسسني، كي لا يمسني أحد، ساورني شعور بأنه رجل ذو خلق، كنا قد وصلنا للجريدة بمعجزة بفعل الزحام، كدت أطير لمكتب ياسين عندما ظهرت لي الجريدة من بعيد وأنا في السيارة، كي أكون معه في الموعد المحدد، فوجدته كما كان بالأمس تمامًا، منكبًّا على الأوراق.

تفاجأ بصوتي في مدخل مكتبه وأنا أنبهه لحضورنا:

– وصلت يا أستاذ ياسين، وهذا يونس زميلي في الجامعة، من أبناء المنيا، قريته بجوار تلك القرية، ويمكنه مساعدتنا في التحقيق.

رفع رأسه من بين أوراقه في حركة بسيطة بلا تعبيرات تعلو وجهه، نظر ليونس نظرة مطولة، قاس المسافة بيننا، ليعرف مدى حميمية العلاقة، ثم أعاد رأسه مرة ثانية لوضعه بين الأوراق، وقال بصوت خافت:

– نتحرك خلال نصف ساعة، أكون انتهيت من تلك المقالة.

هززت رأسي بالموافقة وخرجت مع يونس، جلسنا على كرسيين متقاربين من ناحية مكتب الاستقبال، لنطل على مكتب ياسين.

كان أستاذ علي يراقب ما يحدث من خلف زجاج مكتبه، وكله أمل بهذا التحقيق، ظل ينظر نحوي بتمعن قبل أن يبتسم لي مرة واحدة، ثم يعود وينهمك في عمله.

يكمل الإجهاز على شطيرة الجبن بالطماطم بجوار كوب الشاي بالنعناع، وهو يكمل عمله، يبدو كمن يستكمل أكلة الأمس، ويستمع

للموسيقى في راديو صغير موضوع على مكتبه، وتدندن نجاة الصغيرة معه، فأصبح صوته يعلو على صوت نجاة.

"كنت حاسه إن حبه كل مدى كان بيكبر، أبقى عايزة لو يكون لي قلب غير قلبي الصغير، فضلت آمالي مع الليالي، تقرب حبيبي اللي ساكن قصادي وبحبه".

ياسين من خلف زجاج مكتبه يتابع تلك الجلسة بيني وبين يونس بنظرة من الإباء، ثم تحولت نظراته لنوع من الغيرة، فكنت في اهتمام بالغ به، أتابع كل حركة منه، أنظر له وأنا ممسكة بكوب القهوة، أبتسم له كلما جاءت فرصة، ولا يرد لي الابتسام بل ينظر ليونس كأنه يلومني على جلبه.

ويونس الفلاح الفصيح متماهٍ مع تلك الحالة الموجودة من حوله، فالحركة الدائمة بين المكاتب من المحررين والكتاب، ليخرجوا أعمالهم بأفضل شكل ممكن، تجعله يتساءل في حماس عن كل تفصيلة، يزداد فضوله أكثر، ويسألني عن وضعي هنا.

أضحك وأجيب: مبتدئة.

ونجاة ما زالت تكمل أغنيتها في البهو الواسع.

"وفي يوم صحيت على صوت فرح بصيت من الشباك
زينة وتهاني وناس كتير دايرين هنا وهناك
شاوروا لي بإيديهم وقالوا لي عقبالك
هللت م الفرحة وسألت

قالوا جارك

حبيبي حبيبي

اللي ساكن قصادي وبحبه".

ياسين يسمع الأغنية من بعيد، كان يبدو كمن يحاول أن يخرج كل شـــيء من رأســـه ليركز مع المقال، وأنا أرى الغرام يغزل بداياته، فلنترك الأمور تسير نحو قدرها.

انتهى من المقال، فقام من مكتبه، ليتركه مع أســـتاذ علي وانطلق نحونا محذرًا: - يجب أن نتحرك الآن وإلا تأخرنا.

***

## دير سمالوط

الطريق لم يكن بهذا الســـوء الذي تتوقعه عندما تســـمع عن أحوال الصـــعيد في الجرائد والراديو، فالنهر الجاري والأرض الزراعية حوله تعطيك نوعًا من السلام النفسي، لا تستطيع أفضل المهدئات في العالم أن تعطيك إياه، وأنا أتحدث عن تجربة. أحببت شـجر الصـفصـاف وهو يشرب من النيل الأزرق بهذا الحنان، وأحببت أكثر شجر التوت، تخيلت شكلها وهي مثمرة، وتمنيت أن أعود لها لأتسلقها وآكل توتًا بلديًّا أحمر، حتى يصبح لساني ملونًا مثل الأطفال التي رأيتها تفعل ذلك.

بعدما ركبنا القطار، تحول كلٌّ منهما لشـأنه وتركوني للطريق، يونس

ينظر لي بين الحين والآخر، يبتسم ويعود للصمت ثانية، كان يبدو متوترًا بعض الشيء، بينما ياسين غارق في تأملاته وقراءاته، كدت أصفق من دهشتي عندما رأيت سيدات مصريات يغسلن الأواني والملابس على ضفاف النيل، في أماكن مخصصة يبدو أنهم قد قاموا بصنعها من الأسمنت.

ضحك عليَّ يونس لهذا الاندهاش: إنه أمر طبيعي.

ولكن ياسين تفهم سراندهاشي: هي غير مندهشة من أنهن ينظفن، فالنساء المصريات معروف عنهن أنهن نظيفات للغاية، لكنها مندهشة من تطويعهن للإمكانيات المتوفرة لديهن في سُبل النظافة، حتى لو خاطرن بأنفسهن ونزلن النهر بهذه الطريقة.

ابتسمت لياسين الذي يفهمني دون أن أنطق، كان يجلس بجواري في هدوء، يرمقني كل فترة بنظرة حنونة، لكنه لا يوجه كلام نحوي، فقط كنت أشعر بأنه هو ويونس في تنافس، كان بينهما نوع من النظرات كأنهما في صراع على سلطة القطيع، لم أكن أتخيل طباع ياسين تنافسي هكذا، ياسين الهادئ الذي يسلي نفسه، وهو يقرأ في "مأساة الحلاج" لصلاح عبد الصبور في الطريق نحو سمالوط، ألم يكن أولى به أن يقرأ شيئًا لخيري شلبي ونحن نتجه للريف؟ ولكن لكل منا تفضيلاته.

أشجار التوت والصفصاف المرتبة في تبادل تحتل ضفاف النيل في جمال مبهر، وأظن أنه ليس أمرًا سهلًا هذا النوع من الترتيب دونما تخطيط مسبق.

لا أتذكر أحداثًا جليلة حدثت في القطار، فقد ظلوا صامتين معظم الوقت حتى حضر وقت الطعام، بعدما اشترينا بعض الأطعمة من الباعة الجائلين في القطار، ثم عاد ياسين لكتابه وترك يونس يتلفت حوله، فينظر في وجوه الجالسين كل بضع دقائق، كأنه يبحث عن أحد يعرفه في القطار، كي لا ينتشر خبر وجودنا معه قبل وصوله، فيسبقه ويفسر له سبب اصطحابه لنا، فالأخبار تنتشر في الريف أسرع من الصحف.

بلغت الساعة الثامنة مساء عندما وصلنا لمحطة سمالوط للقطارات، نبحث عن أقرب فندق للمبيت الليلة، غرفتين منفصلتين، واحدة لي والأخرى لياسين. طلب بسيط، أليس كذلك؟

يونس كان سيذهب لقريته بعد أن يطمئن علينا، أي فندق درجة رابعة أو خامسة سيكون مقبولًا، فندق المحطة مفتوح للغرباء والمسافرين دائمًا، بعد نصيحة أحد عمال المحطة، لكن الحظ لم يكن حليفنا في تلك الساعة المتأخرة بالنسبة لمركز سمالوط.

فعامل الاستقبال الذي امتعض وجهه بمجرد رؤيتي، طلب مني البطاقة، ليتبين خانة الديانة، ولكني لا أملك بطاقة، فدفعت له بجواز السفر، امتعض أكثر عندما رأى خانة الديانة، ولمعرفته أني غير متزوجة وأريد غرفة منفردة، ظل يكرر استغفاره في وجوهنا ويحمد الله على نعمة الإسلام، في البداية قال إن كل الغرف محجوزة، وعندما لمح ياسين مفاتيح إحدى الغرف الفارغة خلفه ونبهه لذلك، امتعض أكثر حتى تأفف: إني أعرف عملي جيدًا، وأعرف كيف أحافظ على سمعة المكان.

سـمعة المكان، يا الله! من قال له أني ذات سـمعة سـيئة؟! لألطخ سمعة المكان، فيرفض استقبالي.

تضايقت من حديثه ولهجته المحملة بالبغض نحوي فانفعلت عليه:

– هذا مخالف للقوانين، لا يوجد قانون ينص على رفض تسـكين غرفة لسيدة وحدها.

– هذا قانون الحكومة، ونحن نحتكم لقوانين العرف.

– سأبلغ عنك.

– سأوصلكِ للمركز بنفسي، ولن أقبل وجود امرأة بمفردها هنا.

كنت على وشك ضربه لتكون قضية بقضية، ولكن يونس وياسين أمسـكوني وقرروا الانسـحاب. ياسـين كان صـاحب رأي مقنع للغاية، يعرف كيف يجعلك تريد فعل ما يريده، لكنه رفض الدخول معه في نقاش فهو يعرف من هم مثله، وبرر موقفه بالانسـحاب، بأن معظم عقول أهل الريف هكذا.

نظر ليونس في تساؤل:

– أليس كذلك يا يونس، كنت سترفض لو كنت مكانه؟

لم يجِب يونس عن السـؤال فقط اكتفى بالسـكوت، بعدما نظر له بنوع من الحنق، وحمل بعض الحقائب اسـتعدادًا للخروج من المحطة، نظر لي ياسـين وهو يضـحك ضـحكة خبيثة، كأنه يريني أي نوع من الرجال هو يونس.

خرجنا من باب المحطة نحو الشارع المعتم، لماذا لا توجد كهرباء هنا؟

كنت قد قررت الانتقام من عامل الاستقبال غدًا عندما أستيقظ، لكن لنجد مكانًا للمبيت الليلة.

اقترح يونس أن نذهب لفندق أفضل وأعلى تقييمًا من الدرجة الرابعة، وبهذا لن نواجه هذه المشكلة، كان اقتراحًا مناسبًا.

لكن أحد الموظفين في الفندق توجه إلي متكرمًا ولكن بلهجة لا تخلو من العتاب:

– لا توجد فنادق تستقبل نساء وحدهن هنا، الحل بيت الطالبات للنساء الراغبات في المبيت، وقد تأخر الوقت على استقبالكِ.

لست أكره كوني ولدت امرأة، ولكن المجتمع يجبرني على هذا، أبسط الأمور محرومة منها لكوني فتاة.

عرض يونس استقبالنا في بيته المتواضع بكرم واضح وإصرار غريب، لم يعطِ لأحد فرصة للكلام أو التشاور، وإن كانت لا توجد حلول ثانية لم نود أن نثقل عليه، أوقف أحد عربات الحنطور وصعد بجوار السائق، ليعطي مساحة لي وياسين بالجلوس في الخلف مع الأمتعة، أعطاه العنوان وتحرك نحو قريته.

تبدو السماء في سمالوط جميلة جدًّا في شهر توت، رائقة وصافية والهواء منعش، بدأت أحب سمالوط في تلك اللحظة التي استطعت أن أرى فيها النجوم بوضوح لصفاء السماء.

ولأن المسافة بالحنطور طويلة، عاد الصمت مرة ثانية بيننا نحن الثلاثة.

***

## في رحاب وداد

بلغت الساعة التاسعة مساء عندما وصلنا إلى منزل يونس، أنزلنا الحنطور أمام المنزل مباشرة، كان يملك مفتاحًا للمنزل، لكنه أخبرنا أنه لا يستخدمه فكان يطرق الباب حتى تفتح له أمه وداد لتفرح بعودته، أحببت تلك الفكرة.

لكنه قرر مع وجودنا المفاجئ بالنسبة لها فتح الباب بالمفتاح، حتى لا يوقظها فترتعد من وجودنا معه، وتعتقد بوجود خطب ما.

دخلنا في صمت نتحسس مكاننا، وأشار يونس بيده إلى غرفة لأدخل إليها، حمل عني الأمتعة وتركها على باب الغرفة. وانصرف نحو ياسين يشير له بالنوم على الأريكة في غرفة المعيشة، الإضاءة الخافتة للغاية في الليل، لا تستطيع معها أن تستدل على معالم المنزل، سمعت صوت يونس وهو يدخل لغرفة مجاورة، لكنه خرج سريعًا قبل أن أبدل ملابسي.

مر الليل سريعًا علي الجميع عداي، كنت افترشت السرير بملابس خفيفة لأنام على راحتي، ولكني غير معتادة على تغيير مكان نومي، فبقيت أتقلب في مكاني، حتى سمعت آذان الفجر.

استيقظت وداد أم يونس في موعد صلاة الفجر، شعرت بها عندما فتحت الباب، تلك الأبواب تحتاج للتشحيم بشكل عاجل، فهي تصدر صوتًا كلما لمسها أحد، كان يونس ينام على أريكة في مواجهة غرفتها مباشرة، فاستغربت لنومه هناك بالطبع، ولكن عندما رأت جسد رجل ثانٍ على الكنبة المقابلة، ازداد استغرابها، واعتقدت أنه أحد أصحابه.

على ما يبدو أنها خافت أن تضيع عليها صلاة الفجر في التساؤلات، ففضلت الصلاة أولًا ثم سؤال يونس ثانية، فتوضأت سريعًا، وأنا أسمع صوت المياه يتدحرج كأنه يتدحرج في أذني بكل وضوح، حتى وضعت الوسادة فوق أذني، وصلت فرضها، ثم جلست على سجادة الصلاة تقرأ نصيبها الصباحي من القرآن والأذكار، مع العديد من الأدعية ليونس بالخير والعافية والعمر المديد، كنت أسمع كل شيء بوضوح حتى خُيل لي أنها معي في نفس الغرفة، يبدو أنها تفعل هذا في كل صلاة، فهي تحفظ عن ظهر قلب ما ترده.

يونس وياسين مستغرقان في نومهما بشدة، لو سقط المنزل على رأسهما لن يستيقظا، أحسد الرجال على راحة بالهم في كل الظروف.

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة على ساعتي، وما زالت وداد جالسة على سجادتها تدعو الله بما تشتهي، وأنا أنظر للساعة في يدي كل خمس دقائق، أحب أن أقوم من مكاني ولكن أخاف أن أفاجئها بوجودي، سمعت صوت أقدامها وهي تتحرك نحو غرفتي، حاولتْ فتح الباب، ولكنه كان ثقيلًا عليها على غير المعتاد.

كنت قد وضعت حقيبتي خلف الباب، وكرسيًّا خفيفًا من الغرفة، الباب لم يكن يغلق للنهاية، ففكرت في تلك الفكرة ببساطة.

تحاول فتح الباب، وأساعدها في إزاحة الأشياء من الخلف بهدوء، كي لا نوقظ الفتية.

لتجدني في وجهها وهي تفتح الباب، بملابس خفيفة مناسبة للنوم، وما زال شعري غير مرتب ووجهي ملطخًا بالمساحيق منذ أمس، فلم أغسله قبل النوم كما أنا معتادة، يبدو أنها صُعِقت من وجودي.

شهقت شهقة خفيفة كتمتها، حتى لا تبدو عليها الخضَّة.

فبدأت الحديث معها لكسر حاجز الرهبة بيننا وأعرفها بنفسي:

– صباح الخير يا أمي.

تسمرت في مكانها ولم تدرِ بماذا ترد، فهي لا تعرف من أنا وكيف وصلت لغرفة نوم ابنها! ولها حق في رجفتها.

أصبح وجهها أحمر كالتوت البري، زفيرها الساخن خرج على وجهي، فأصبحت أنا كذلك محمرة الوجه. ولم تجد قوة تُخرج الكلمات من لسانها، ولكنها وجدت قوة في أقدامها فتحركت من الغرفة نحو الخارج، وأخذت الباب في يدها. يجب أن أغير ملابسي حالًا لأخرج لها وأوضح الأمر.

سمعتها تصرخ على يونس، وأنا أحاول تغيير ملابسي بسرعة: من تلك التي في غرفتك؟ هل تزوجت دون علمي؟!

ما زال يونس تائها في نومه لا يعي ما يحدث حوله، كيف توصلت أمه لتلك النتيجة العظيمة؟ تزوج من امرأة وأتى بها في الليل، وجعلها تبيت في غرفته، حتى يفاجئ والدته بأمر زواجه، كيف توصلت لهذا السيناريو؟!

النوم ما زال متملكًا من يونس، لكن كان يوقظ نفسه بالقوة حتى يحل هذا الموقف، كنت قد خرجت بعدما ارتديت ملابسي بسرعة صاروخية لأوضح الأمر لها، سأفهمها الحقيقة.

فوجدت أن يونس قد تشابك معها في الحديث، ويبدو أنها سألت من أنا:

– زميلة يا أمي في الجامعة، تقوم بتحقيق صحفي في قرية مجاورة مع مديرها، وطلبت مساعدتي، وهذا النائم على الكنبة مديرها.

– ولماذا تنام في غرفتك؟

– ضيفة هنا، رفضوا أن تبيت في الفندق، ولم نجد مأوى آخر، ولا توجد غرف مغلقة سوى غرفتي.

– هل هي زميلة فقط؟

– نعم يا وداد، مجرد زميلة ضيفة هنا، تغادر في نهاية الأمر.

– هل هي مصرية، لهجتها غريبة عنا؟

– لا، ضيفة في بلدنا.

– أصبحت أنا الضيفة هنا في بيتي، لا أعرف ماذا يحدث!

نظر لها يونس بطريقة تدل على خجله من طريقتها معنا:

– راعي يا أمي حرمة الضيوف.

غضبت وداد من يونس وكلامه أكثر ورمت السبحة من يدها، وذهبت تجلس على الكنبة التي كان ينام عليها يونس، تنظر إلي وهي تتفحصني، يبدو أنها لم تقتنع بتلك الحجة، ف وداد في النهاية هي سيدة صعيدية بسيطة، لا تدرك أكبر من حدود قريتها، لا تؤمن بشيء ليس في عاداتها وتقاليدها.

ياسين الذي كان مستيقظًا من الصوت حوله بالتأكيد، ولكنه قرر تمثيل النوم ليتجنب تلك المحادثة، بدأ يتقلب في نومه ليعطي إنذارًا بأنه سيستيقظ الآن كي يكفوا عن الشجار..

قام يعتدل في جلسته، كي ينهي هذا الجدال: صباح الخير يا سادة.

رد يونس تحية الصباح على ياسين، بينما التزمت وداد الصمت، وأنا واقفة مكاني أشاهد دون نطق، فقد خفت أن أزيد من سوء الموقف لو قلت كلامًا في غير محله.

التفتت لي وهي تتأهب كي تدخل غرفتها، كانت نظرات وداد لي كارثية، ليست نظرة امرأة كبيرة لفتاة صغيرة، بل لامرأة تخطف زوجها منها..

دخلت وداد غرفتها فدخل يونس خلفها، ليشرح لها الموقف.

تركونا وحدنا في ساحة المنزل، فجلست بجوار ياسين، أحتمي بوجوده معي، وجدت فرصة للتأمل في البيت في ضوء النهار، يبدو ككل بيوت القرى المصرية البسيطة، كان البيت من دور واحد به عدة غرف إحداهم للضيافة، كانت متسعة على آخرها، بها عدة مقاعد طويلة ممتدة تُسمى كنبًا بلديًّا متراصة بجوار بعضها، عليها مراتب ذات تنجيد قوي من القطن المصري الممتاز، كانت مغطاة بأقمشة ملونة وزاهية ووسائد من نفس التنجيد، والأغطية تغطي المساند إلى الحائط خلفها بمساحة كبيرة، وتعطيك أمانًا وراحة للاستناد عليها.

وفي منتصف غرفة الضيافة حصيرة من الألوان المتداخلة برسمة مصرية، تغطي الأرض الترابية تحتها.

أما الغرفة التي نجلس بها فتبدو كغرفة المعيشة، بها كنبتان للجلوس، وهناك بجوار إحدى الكنبات في مدخل البيت الفسيح زير من الماء، أحببت الباب الخشبي في المدخل؛ يبدو قيِّمًا وذا خشب متين، وكذلك الطبلية الخشبية مركونة هناك بجوار المدخل، وفي المنتصف حصيرة تغطي معظم الأرض.

وبجوار الحائط المقابل للكنب بوفيه من الخشب الذي يبدو دهانه قد تشقق لمرور الوقت عليه، لكنه ما زال مميزًا وجميلًا، بنقوش الورد الصغيرة عليه مع اللون الأخضر الفاتح.

كنت أراجع الموقف في رأسي، أتساءل لماذا تلبس وداد حجابًا في بيتها وهي وحدها، حتى لو كانت تصلي فقد فرغت من صلاتها، وتلبس عباءة سوداء أيضًا داخل المنزل، غريب أمرها!

خرج يونس ووداد بوجوه بلا تعبيرات، كانا يبدوان كزوجين قد اتفقا على أن يكون الوضع ممتازًا أمام الضيوف، مهما كانت الكواليس، لكنها نظرت لنا بنوع من التحذير والتعالي دون كلام.

نظر لي ياسين في نوع من التساؤل الصامت، هل نطلب الإذن بالذهاب أم نبقى؟

خطف يونس الأمر من الأفكار المتطايرة في الأجواء، ووضعه في غريزة الجوع، وطلب الإفطار من يد وداد.

عرضت المساهمة في التحضير، تعجب ياسين ورفع حاجبه من رد فعلي نحوها، لولا أن أشار لي يونس بالجلوس والاستراحة، كنت سأساعدها حقاً.

عاد ياسين للتمدد ثانية، وهم يعدون الطعام، وأنا أراقب الوضع الذي يتعقد كل ثانية عن سابقتها.

نصف ساعة وانتهوا من تحضير الطعام، فأخذ يونس الطبلية ووضعها في منتصف الغرفة على الحصيرة، وأنزل المساند من على الكنب لنجلس عليها.

خرجت وداد بصينية مملوءة بالطعام المتعدد، بها بيض في سمن، وعسل أسود وأبيض، بعض البطاطس المحمرة والباذنجان المقلي مع خلطته المميزة بالثوم والفلفل، وكذلك جبن قديم مع الجرجير والطماطم المقطع والخيار، والفول المدمس مع البيض، مع العيش المخبوز الأبيض الذي فاحت رائحته في المكان.

كنت طبلية عامرة للغاية بالنسبة لي، بمجرد أن رأيت تلك الطاولة، تذكرت أمي والفطور من يدها، وصرحت بذلك.

– هذا الفطور يذكرني بالفطور في لبنان من أمي، كم أحب الإفطار بين الناس!

لم تعلق على مدحي للطعام أو تشاركني الرد، فقط اكتفت بإعطائي رغيفًا من الخبز وهي لا تنظر نحوي.

رد ياسين بدلًا منها حفظًا لماء الوجه: يجب أن تجربي الإفطار في الجريدة، ستشعرين أنكِ في سوق الخضار.

– سوف نجربه غدًا، وسيعجبني، أنا أحب التجمعات.

ضحك يونس من جملتي حول التجمعات في تخفٍ، وأكمل الطعام.

ضحكت على ما فكر به، وتذكرت كيف كنت واقفة هناك، أرفع صوتي أكثر كي يتجمع الناس حولي.

أكلنا كثيرًا أكثر من المتوقع، انتهى كل الموجود في الأطباق، فلم تعد تحتاج للتنظيف، وبدأ ياسين يطالب بالشاي الصعيدي الذي يسمع عنه، ولكني اقترحت القهوة لنستطيع الاستفاقة، وأجاب الرجلان بالموافقة السريعة على الاقتراح.

رفضت وداد الاقتراح، وتحججت بأنها لا تعرف كيف تصنع القهوة، وحده يونس يصنعها، فعرضت صنعها بيدي.

زادت حالة وداد بالرفض تجاهي، تلك الحالة ســأســميها "وداد"، تشعر بالتهديد بسببي، فتبغض كل ما أقوله أو أفعله دون سبب واضح.

دخلت المطبخ معي ترشـدني، يجب أن أتعامل معها بطريقة جيدة مهما حدث، فأنا ضــيفة هنا، فحاولت جذب أطراف الحديث معها، وأخبرتها عن مدى جمال الطعام الذي أعدَّته، وكم أتمنى أن أصــبح أمًّا عظيمة مثلها ولكني لا أفضــل الإنجاب، أكدت على قيمتها وتقديري لها، وخاصة عندما وصلني ما فعلته بعد وفاة زوجها.

تلك الكلمات لم تعجبها على ما أظن، فســألتني بلهجة حادة: من أخبركِ بذلك؟

كيف أقول لها حقيقة الأمر؟ فأنا علمت بوفاة والد يونس منذ يوم واحد فقط من عادل، وكان كلامي عن كونها تولت تربية طفل وحدها، ولا أعرف شيئًا خاصًّا عنها، أثني عليها بشكل عام ككل النساء اللاتي يربين أطفالهن وحدهن، لم تعطِني فرصة للرد، ردت بلهجة غاضبة.

– يونس الذي أخبرك، أليس كذلك؟!

لم أجِب عن الســؤال خوفًا من الوقوع في الخطأ، فاســترســلت في الكلام عن الأم ودورها في حياة الأبناء، أخبرتها عن أمي وكيف تحملت الكثير من أجلي، خاصة وأنها من أرسلتني لمصر، لم تهتم لكلامي.

لكنها كنت تلاحظني في كل خطوة، وتراقبني وكأنها تضــع لي تقييمًا في النهاية، لكنها نظرة محملة بالريبة والبغض، وضــعت فناجين القهوة على صينية من النحاس وجدتها على المطبخ الخشبي.

ثم حملت الصينية وخرجت لهما، استمتعا بطعم القهوة، شربنا القهوة في سلام وهم يرتبون كيفية التحرك إلى القرية المنشودة، المسافة بسيطة ليست أكثر من عشر دقائق بالحنطور، فرتبنا أمورنا، حزمنا الأوراق والأمتعة وتحركنا.

ألقيت السلام عليها وأنا أخرج من منزلها، وتمنيت لها الخير لحسن ضيافتها، وكذلك فعل ياسين، ردت بوجه بارد ولكنها ردت وهذا يكفي.

– شرفتونا.

ما زال الحنطور هو وسيلة المواصلات المتوفرة هنا، لنصل لقرية السلام.

***

## الحب والسلام

نزل يونس من مكانه في الحنطور بجوار السائق، وسأل عن منزل القتيل بحكم أنه من الجوار ويملك نفس لهجتهم، كان الوضع متأزمًا في القرية بعد الحادث، امتنع الناس عن الكلام مع الغرباء خوفًا من المشاكل، لكن يونس ولهجته الصعيدية كانت سببًا لتبادل الحديث كما فكرت، فدلَّه أحد السكان على منزل القتيل.

وصلنا للمنزل الموصوف، يبدو من الخارج كأي منزل عادي بالقرية، ككل البيوت التي مررنا بها، ما يميز القرى هنا أن كل شيء متشابه.

فالبيوت كلها تتكون من دور واحد من الطوب اللَّبِن غير مبهرجة من الخارج، لا تدري إن كان هذا بيت غني أو فقير، لم نميز بيت القتيل سوى من علامة الخطأ الحمراء الضخمة، الموضوعة على باب البيت الخشبي بفعل الشرطة.

نزلنا سويًا ودق يونس على الباب دون أن يستجيب أحد، فحاول ياسين أن يتقصى الأمر من الجيران، خرجت له سيدة في منتصف العقد الثالث، سألها عن أهل البيت المجاور وأخبرها بأنه صحفي، ردت عليه بأنهم رحلوا بالأمس ولا تعرف إلى أين، ثم أغلقت الباب سريعًا في وجهه.

لم نعرف ماذا نفعل مع وضع كهذا، بعد كل تلك المسافة والمخاطرة، هل نعود خالبين الوفاض؟!

رجعنا مرة أخرى للحنطور استعدادا للعودة بعدما فقدنا الأمل، لكن اقترب منا رجل يمسك بدابته وقال لصاحب الحنطور اتبعني، ارتبك الرجل فطلبنا منه أن يتبعه..

كان الرجل يمضي من درب إلى درب في تباعد واضح حتى لا يلاحظ باقي السكان، وصلنا لخارج القرية بمسافة جيدة للاختباء عن العيون، فنادى علينا: توقفوا.

ثم دخل إلى أحد الحقول، وربط دابته بجوار نخلة، تبدو وكأنها أرضه، ثم هتف مرحب:

– أهلًا وسهلًا بكم.

– أهلًا بحضرتك، نريد أن نعرف تفاصيل الحادث.

– ما اسم الجريدة التي تعملون بها؟

– الأهرام.

– جيد، أريد خمسين جنيهًا مقابل الحديث.

وافق ياسين بسرعة، مد يده في جيبه وأخرج المال، أعطاه إياه، وطلب منه الاسترسال في الكلام.

– ليست إلا قصة حب عادية قد اشتعلت بين فتى وفتاة، لكن الفتاة مسلمة والفتى مسيحي، وهنا كان الفخ، لا يوجد أحد يمكنه تقبل فكرة زواجهما.

أصابتني صدمة من حديث الرجل وهو يستطرد قائلًا:

– أحيانًا تعمينا نيران الحب عن الواقع، من سيقبل زواجهما؟ اختلاف الديانات في الزواج قد يؤدي إلى الفتنة، كون الفتاة هي المسلمة وليس العكس يستحيل زواجهما، لا يعرف أحد كم حاولا أن يبتعدا عن بعضهما ولا كيف اتخذا القرار، ولكن كان هناك تكهنات بما حدث بين نساء القرية، فقد استيقظت القرية ذات يوم أحد على عويل من منزل الفتاة وقد تغيبت في الليل وهم نيام، خبر كهذا لن يخفى على قرية كقريتنا سوى بضع ساعات، بدأ الجميع في ترقب ما سيحدث لأهل الشاب الذي لم يُعرف بعد، فأبوها وعمها قد حملا السلاح منذ اللحظة الأولى التي صرخت بها أمها.

كانت أمها تنعي حظها في بنتها وكيف كسرت رقبتها، بينما أم مينا في المنزل المجاور تترقب عودة ولدها في قلق وخوف، تعرف أنها مسألة ساعات ووقت، وسيُعرف من الغائب عن القرية من الرجال وخاصة أن الباب في الباب.

ماذا خيل لهما وهما يهربان، هل ظنا أنهما سيختفيان للأبد؟ بقي والدها واقفًا أمام المنزل يراقب أعين الجبناء حوله، وهم ينهشون في سمعة أهل بيته، وبدأ يحس بشيء غريب في البيت المقابل، فلم يخرج منه أحد يعزيه ولا يقف بجواره حتى تلك اللحظة، وهو غير معتاد منهم على التخاذل نحوه في أي ضائقة، هل ماتوا جميعًا، أم يحاولون إخفاء شيء ما؟!

أخذ بندقيته وتوجه نحو بابهم، دق الباب، فعلا صوت أم مينا بالنحيب، خرج أبوه والدموع قد أغرقت عينيه، يبدو في حالة حزن عارمة وانكسار واضح، سأله: هل هناك غائب في بيتك؟

بماذا سيرد المسكين، وهو يعرف أن الكذب بلا أقدام؟ ربما سيسبب الضرر لأولاده الآخرين ولنفسه، يجب أن يتحمل كل فاعل فعلته فأجابه.

– نعم.

– من؟

– مينا.

أزاحه بقوة للداخل وشد الباب للخارج، أغلقه بإحكام ورفع بندقيته، ورفع صوته ليسمعه الجميع: وجدت الخائن.

ظل الجميع يضرب كفًّا على كف، لماذا؟!

كانت الاحتمالات الكبيرة هي المشكلة الآن، في أي اتجاه يتحركون؟

كيف يتخاذلون عن التحرك مهما كبرت الاحتمالات، ذهبوا لقسم الشرطة، وتركوا هناك بيانات الاثنين وصورهما مع أحد الأمناء، دون بلاغ رسمي، وانتظروا أن يرد عليهم في أقرب وقت لو ظهروا في أي مكان، الوقت سيقتلهم لو انتظروه، تحركوا نحو الموقف الرئيسي للمحافظات، ومحطة القطار يسألون العمال هناك عنهما.

لا أحد يعرف تلك الوجوه في موقف المحافظات.

أصبحت محطة القطارات هي السبيل الأخير للوصول لهما، أجابهم أحد أبناء القرية والذي يعمل بكافتيريا المحطة، أنهما ركبا القطار المتجه نحو بحري، الإسكندرية أو البحيرة تقريبًا، يعرف وجهة القطار لكن لا يعرف إلى أين يذهبان، ينتظرون عودتهما ليلًا دون جدوى.

ليست مسألة عويصة نزول غريب في محافظة غير محافظته، سيتجه لأحد السماسرة، ليدله على شقة للإيجار، وهذا ما فكر به أهل الفتاة، نزلوا إلى الإسكندرية عند أقربائهم، ثم توجهوا إلى السماسرة في الأنحاء، يسألون عن الشاب بصورة له قد أخذوها عنوة من منزله.

بعد يومين عرفوا من صديق الشاب أنه طلب منه رقم هاتف أحد السماسرة بالعجمي، ذهبوا إلى السمسار الذي أخبرهم أنه أجر له شقة مفروشة بأحد المنازل، هو وزوجته، عندها اعتلى الغضب وجه أبيها

وعمها، الغضب الممزوج بفرحة الوصول للهدف.

كانت السـاعة الثانية ظهرًا، عندما دق الأب جرس الباب، وذهبت الفتاة لتفتح الباب معتقدة أنه مينا زوجها، لكنها تفاجأت بأبيها وعمها من خلفه، كانت تحمل منشفة في يدها عندما هجم عليها والدها وطعنها بالسكين في كتفها، سقطت المنشفة وهي تصرخ في محاولة للفرار من مصيرها المحتوم، لكن عمها أسرع وأطبق على عنقها وهو يكتم أنفاسها بكل قوته، تاركًا سـكين والدها يخترق جسـدها في مناطق متفرقة، جحظت عيناها للحظة قبل أن تستسلم للطعنات في عجز، وتسقط ميتة بجوار منشـفتها دون حراك، خرج الأب والعم مسـرعين من الشـقة ليصـطدما بمينا على سـلم العمارة، دفعه أبوها ليسـقط متدحرجا على السـلالم في عنف، عجزت قدماه من الصـدمة والخوف أن تحمله مرة أخرى، فانقض عليه والد الفتاة وذبحه من عنقه، ثم فصـل الرأس عن الجسد بمساعدة أخيه، ولاذا بالفرار.

في المسـاء عادا إلى القرية مع فريق البحث المعاون لهما، ثم أطلقوا أعيرة نارية في الهواء ليعرف الجميع أنهم انتقموا لشـرف العائلة، أطلت الرؤوس من النوافذ والشرفات، وتهامس الناس في الشوارع والمقاهي، عندما ارتفعت الزغاريد من بيت الفتاة، لا يعرف أحد كيف أفلتوا من كمائن الشرطة كل هذه المسافة، دون إلقاء القبض عليهم بالتهمة التي يحملونها.

لم يكتفوا بقتل الشاب بل طردوا والده وأسرته، قبل أن يهجموا على المنزل ليلًا، ويقوموا بتكسير الأثاث وتدمير المقتنيات، ثم اقترح أحدهم أن يشعلوا فيه النيران.

وصلت الشرطة بعد اشتعال الحريق في المنزل، حاصرت المكان وطلبت سيارات الإطفاء، ثم قامت بإلقاء القبض على كل من له علاقة بالأمر.

نصح مأمور القسم أهل الفتى بالخروج من القرية لأنهم لن يستطيعوا حمايتهم، وكأن الأمر اختياري.

ترك أهل الفتى جميعًا القرية وليست أسرته الصغيرة فقط، كذلك فعل أعمامه وأخواله خوفًا من أن ينالوا نصيبهم من التنكيل، حتى بعض أقاربه من الدرجة الثالثة أصابتهم اللوثة، وقرروا الفرار.

وضعت الشرطة تلك العلامة الحمراء على منزل القتيل، وحذروا من الاقتراب منه، حتى القس في الكنيسة أصابه الخوف، رفض دفن الفتى في مقابر الكنيسة، فدفنته الحكومة بمعرفتها في قبر منفصل في مقابر الصدقة.

***

## سبق صحفي

عدنا إلى القاهرة في حالة من الصدمة والتفكير، بينما فرح أستاذ علي بهذا السبق الصحفي، وكيف جمعنا كل تلك التفاصيل لهذه القضية التي تصدرت العناوين في الجرائد، وتكتمت عليها الشرطة، اتسعت ابتسامته وهو يهنئنا قائلًا:

– يا له من سبق! سيجعل كل الصحف تلهث على نفس القصة ولكن بعدنا، نحن في الصدارة. أرجو منك يا ياسين أن تخرج تحقيقًا صحفيًّا لا مثيل له، خذ ما تريد من وقت، ولكن ليس أكثر من يوم، أنتظر منك قنبلة تهز عالم الصحافة.

كنت أقف في مكاني كالتماثيل التي أصورها لا أتحرك، لا أعرف ما هو دوري مع ياسين، كنت أريد أي إشارة منه.

هل سأكتب معه أم ماذا، وهل سيوضع اسمي في النهاية على التحقيق بجوار ياسين؟

– هناك دائمًا مكان لكِ بجواري.

هكذا أعطاني ياسين إجابة لسؤالي الذي يدور في بالي، دون أن أسأله.

– تعالي نأكل وبعدها نناقش ماذا سنكتب، ما رأيك؟

– موافقة.

ياسين صحفي متميز على الرغم من صغر سنه، فقد بدأ مبكرًا، حاز لقب صحفي حتى قبل انتهاء فترة الجامعة، وهذا ليس تحقيقه الأول، كنت منبهرة بتقنيات ياسين عن كيفية كتابة التحقيق وصياغته، الترتيب الذي يجب أن يُسرد به، وكيف يجب أن أفعل ذلك، لتطويع كلام الناس ليليق بالصحف، دون أن يفقد طابعه الأصلي.

اقترح عليَّ أن يقسم التحقيق إلى عدة مرات، ليزيد التشويق بين القراء، كل كلمة كان يقولها كانت تزيد من انبهاري به، فلا أعرف ماذا

سوف أضيف له وهو العارف بكل شيء؟ ربما أقترح عليه في نهاية الحديث أن يصبح رئيس التحرير.

كان يتحدث ويسألني عن رأيي في كل اقتراح، حتى الطعام في أحد مسامط الحسين، فالحسين هو المكان الذي يعشقه ويجد روحه به.

– ما رأيك في الكبدة؟

– ممتازة حقيقي، لم أذق أشهى منها.

– طبيعي، أول مرة تأكلين كبدة حيوان مجهول المصدر.

– مجهول المصدر؟!

– تعتقدين أن طعام كبدة بهذا السعر ستكون لعجل من النوع الفاخر، أحد خريجي مزارع الحكومة؟

– ممتاز! كلت نوع جديد من الكبدة، ما رأيك في حادثة الشاب والفتاة؟

– الحب دائمًا متسرع وغبي.

– لن أكون غبية أبدًا وأقع في الحب، وأنت؟

– أنا غبي ووقعت في الحب.

نظرت له وابتسمت ابتسامة خفيفة على جنب شفاهي، وأنا ممسكة بالطعام، كنت عيناه تتحدث بدلاً من لسانه، شعرت بأنه يقول لي بطريقته الخاصة أنه معجب بي، ولا أنكر أنني ذات ميل واضح له،

كيف ترفض امرأة ياسين، لا أتصور فتاة قد قابلته ولم تقع في غرامه، مرمري اللون هذا، لكن لا تصريح مني قبل أن يقولها هو، أليس كذلك تفعل النساء؟

***

## صفقة الحمير

كنَّا على موعد على العشاء، أخبرني دكتور خالد اليوم صباحًا في الجامعة بمكان اللقاء، في مطعم يقع بحي جاردن سيتي، القدس هو أحد أكبر المطاعم الفاخرة في القاهرة.

كانت "العزومة" بعد نزول التحقيق في الجريدة، اعتقدت أنها مباركة منه واحتفال بأول خطواتي في طريق الصحافة.

دقت السابعة وعشر دقائق عندما وصلت، أما هو فقد وصل منذ عشر دقائق، عندما دخلت وجدته في أبهى صورة، بدلته السوداء الفاخرة، من القماش الذي يشعرك بأن التراب لا يلتصق به مع رابطة عنق رائعة، ولا تكتمل الأناقة إلا مع حذاء لامع، من كثرة لمعانه ظننت أنها المرة الأولى التي يرتديه.

كنت أرتدي ملابس عادية، معها أحسست أنني لا أنتمي لهذا المكان، ببنطالي الجينز الأسود مع القميص الأرجواني الساتان، وحذاء مستوي. أحببت أن أسدل شعري، لكنه كان غير مرتب، فلممته في حركة دائرية وحبسته تحت إحدى الحِلى المخصصة للشعر.

كنت متأخرة عن موعدنا بحوالي عشـــر دقائق فقط، لكنه نظر لي نظرة أعرفها جيدًا، بمجرد دخولي جلســـت في مواجهته دون إرادتي، كرسيان فقط حول الطاولة والكراسي موضوعة بشكل موجه، كان لا يزال غاضـــبًا، هل يظن أنني تجرأت وتأخرت عليه عمدًا؟! ســـألته بمجرد جلوسي أمامه:

– هل فعلت شيء ما أغضبك؟

– لا شيء.

– لا أظن، وجهك يبدو عليه الغضب.

– عشـــر دقائق تأخير هو عمر كامل من الهباء، يجب أن تســـبقي الزمن لا أن يسبقك.

– على ماذا كل هذا؟ الأمر لا يستدعي!

أزاح كوب الماء من أمامه ونظر في عيني مباشرة:

– يتغير العالم بالنسبة لي في دقائق، لو أني حضرت في موعدي منذ ثلاث سنوات، لكنت وزير التعليم العالي الآن.

– تتحدث حقًّا؟ هل تأخرت عن حلف اليمين؟

– لا، تأخرت عن تقسيم التورتة.

ابتسمت وأنا أداعب شعري قائلة:

– لو أعرف هذا لمررت عليكم منذ أربع ســـنوات، وصـــرت أصـــغر وزيرة.

– كنتِ ستكونين مميزة يا عزيزتي، فلديكِ قدرة على إقناع الرجال وبعد ذلك كل شيء سهل، دعينا نتحدث عن المهم.

– والمهم؟

صمت بضع لحظات قبل أن يستانف كلامه قائلًا:

– يونس، ذلك الشاب الذي كان معك، هذا الفلاح الجامح أريده معنا.

سألته محتدة:

– يونس، لماذا؟

– كي نعرف أخبار بعض العناصر المتطرفة في الجامعة، هو مقرب منهم بسبب أصوله المحافظة، كما أنه مقرب جداً من أمير جماعة التكفير في الجامعة، هو ليس متورط معهم، لذا هو الأنسب لمعرفة المعلومات عنهم.

– لا أملك دلالًا عليه، ولا سلطة تؤهلني لفعل ذلك.

– حتى لو أخبرتك أن ثمنه يستحق، زيارة لأمك، اجعلي لنفسك مكانة في قلبه، وسوف يفتح لك كل أبواب الحياة.

***

## سوار الياسمين

عـدت لمنزلي وأنـا أبكي من ألم كتفي الأيمن، ولا أعلم لمـاذا يؤلمني كتفي كلما شـعرت بالحزن، حتى كحلي الأسـود قد سـاح بين تجويف عيني فزحف نحو وجهي، فأعطاني لونًا جديدًا لبشـرتي، لماذا يذكرني بأمي الآن؟

أربعة أعوام ولم أسمع صوتها، أحلم كل ليلة بحضنها وكلامها، نايا، كم أشـتاق لها! أتذكر حكايتها التي أخبرتني بها مرة واحدة فقط، ولم تغادر عقلي بعدها.

أمي التي وُلدت دون أن تملك أب أو أم، وجدوها في كنيسـة تحت أحد الكراسي، وتربت في دار للأيتام.

ودار الأيتام تظل دارًا للأيتام حتى في أفضـل الظروف، لا جديد تحت الشـمس، فقط تجد من يؤمن لها لقمة العيش والملابس وبعض التربيـة في السـلوك، تتذكر أيام الأحـد، عندمـا كـانـت تُعرض كمـا الحيوانات للزائرين، في محاولة لنيل فرصـة للتبني، تحكي أنها كانت تنتظر إحسانًا، لعبةً أو فستانًا وحضنًا جميلًا من إحداهن، تبكي تركها، ولكن التبني لم يكن من نصـيبها، فهي ليسـت بهذا الجمال المبهر كهؤلاء الفتيات اللاتي يتم التقاطهن سـريعًا، سـبعة عشـر عامًا مرت وما زالت تنتظر، حتى صارت في السنة النهائية من البكالوريا.

دقت طبول الحرب وأُغلقت كل الأبواب في لبنان، وصارت في ظلام دامس، تأكل منها الطائفية كل يوم ما تيسر لها.

كانت تدرس في ملجأها صباح اليوم الذي رأته فيها خارجًا مع أصدقائه في مظاهرة ضد النظام هناك وضد الانقسام، كان صوته مؤثرًا وهو يهتف فيمن حوله، فوقعت في حبه..

هذا الثوري الوسيم كوسامة يوسف فخر الدين، الذي تعرفه من التلفاز وتتمنى أن تتزوج رجلًا يشبهه، يرتفع فوق الأعناق وهو يهتف: "تسقط الحرب".

أحبت هذا المشهد، أحبت صوته العالي وهو يطالب بحقه، فنحن أحيانًا ننجذب لشخص لمجرد أنه يفعل ما لا نستطيع فعله، ونعتقد أنه يكملنا.

حلمٌ جميل، شباب يطالبون بحقهم في دولة عادلة ليس بها حروب، ليعيشوا حياة طبيعية. يتداخل صوت الرصاص مع صوت الحلم، لينذر بكارثة.

لم يحتاجوا أكثر من ثوانٍ معدودة لكي يهرب الجميع من الرصاص، وسادت حالة من التدافع بين الجميع للنجاة.

كانت عيون نايا تتابع خطى الثائر، وهو يتسلق سور الحديد الذي تغطيه الفروع الصغيرة المعلقة من الشجر والورد والياسمين، ويلف أرض الملجأ.

واقف مكانه تحت السور لا يعرف في أي اتجاه يتحرك، يرمي بعينيه يمينًا ويسارًا ولا يعرف أين المخرج، أحست نايا بحيرته، فجاءت يد نايا

تلتقطه بعطف، أمســـكت بيده تجره كما تجر الأم ابنها، وهي التي لم تمسك يد رجل من قبل، تجرأت وفعلتها دون سابق معرفة.

تخطت به الأروقة والطرق نحو البدروم، وكان الوضـــع في الجزء الأعلى من الملجأ في زيادة من التهيج، بعدما واصلت صرخات الفتيات الارتفاع كلما زاد الرصاص، كلهن يحاولن الاختباء، والمشرفات يحاولن تهدئتهن و إيجاد الأمان.

المشرفات المشغولات بمحاولة تأمينهن من الرصاص بعدما وصل الرصاص نحو الشرفات المفتوحة ليستقر في الحوائط، كُنَّ غير مدركات غياب نايا، فهي واحدة من بين عشرات.

بقيت نايا معه في غرفة البدروم لمدة تزيد عن الســـاعة، قالت لي أنها كانت أفضل ساعة في حياتها، وهي جالسة أمامه على الأرض تتأمله فقط، لا تريد من الزمن المرور، تتخيل أشياء لا يمكن أن تحدث.

كانت الأصـــوات القادمة من الخارج، تشـــير بأن أحدهم ينزل نحو البدروم. أصابها الخوف وهي تفكر كيف ستبرر الوضع لو كانت إحدى المشـــرفات، فخرجت من تلك الغرفة التي كانا بها، بعدما ربَّتت على كتفه بكف يدها الصـــغير وهي خارجة، كعلامة تطمئنه.. "أنا هنا، سأحميك".

أغلقت باب الغرفة عليه، بعدما خرجت نحو السلالم.

وجدت في مواجهتها على السلالم أحد أفراد الشرطة، يبدو كأنه خارج من متحف الشمع، طوله الفارع وعرض أكتافه، أوقع الخوف في قلبها.

كان يلبس ملابس دوريات الشـــرطة، فعلمت أنه منهم، ويغطي شعره تحت قبعة سوداء مدورة، مع حذاء أسود طويل يناسب طول قدميه.

أزاحها من طريقه دون أن ينظر لها، فضـــربها بســـلاحه في بطنها، لتتدحرج على السلالم وتتكوم في أسفلها. تأوهت بشكل كبير من الألم، وخافت أن يخرج الثائر له، فيتم القبض عليه.

أخذ يكمل بحثه في المكان، فقررت الصـــراخ كما لم تصـــرخ من قبل، في محاولة لإخافته ولاســتقطاب الراهبات، لكنه أدار وجهه نحوها في غضب، ليضربها بسلاحه ثانية ولكن تلك المرة في رأسها، سقطت وهي غارقة في دمائها، تركها وصعد ليكمل بحثه في الأعلى.

خرج الثائر يحملها مرتعبًا، أعادها للغرفة يحاول أن يفيقها فيفشـــل، يبحث عن أي شـــيء ذي رائحة نفاذة بجواره فلا يجد، ولكنه لمح من مكانه الشباك الذي يطل على الحديقة الممتلئة بالورد والياسمين المنثور بجوار الشباك، ليقف على كرسي صغير ويقطف بعض ورود الياسمين.

يضـــعها مجمعة في كف يده ويقربها من أنفها لتســـتفيق، يمرر الياســمين على أنفها مرة ومرات حتى تستيقظ، استفاقت وكانت واعية منذ البداية، ولكنها أحبت أن تكون بين ذراعيه لأطول وقت ممكن.

كانت دماؤها ما زالت تخرج فخاف عليها، وقطع جزءًا من ملابســه ليكتم به الجرح، وجزءًا ثانيًا لف بداخله ورود الياسـمين في هيئة سِوَار، وضعه في يدها، يقربه من أنفها كي تكمل الاستفاقة.

كانت قد تخيلت هذا المشـــهد قبل أن يحدث، وهو راكع على الأرض بجوارها، يحملها بيد وبيده الأخرى ســوار من الياســمين صــنعه خصيصًا لها.

فتحت عينيها تتأكد أنه ليس حلمًا، فقام من مكانه يســتعد ليرحل، أمسكته من طرف قميصه الممزق.

– اسمي نايا وأنت؟

– علي، دليني كيف أخرج من هنا؟

كان علي خائفًا منها على ما يبدو، فعيناها كانتا معلقتين به بلا شــك. أشــارت بيدها في حالة إعياء نحو باب خلفي للمخزن، وهي ما زالت متعبة من ضربة السلاح.

تحاول أن تقوم لتلحق بـه، لكنـه كـان قـد هرب منهـا من البـاب الخلفي، وتخطى ســور الملجأ، خرجت وراءه، فوجدت بعض الأزهار مدعوسة بقدميه.

فصعدت للأعلى تلبس سوار الياسمين في يد، وتضغط على جرحها بيدها الثانية، فوجدت الراهبات في حالة فزع، غابت عنهم ما يقارب الساعة والنصف، وكل سيناريو سيئ قد ورد على رؤوسهن، وقد تخيلن أنها اختطفت، لكنها لم تخبرهن ســوى نصــف الحقيقة، عن الضــابط الذي ضربها وهرب، وأنها نزلت لتحتمي من الرصاص.

مرت أســابيع وهي ما زالت تحتفظ بســوار الياســمين الذي أخذ في الذبول كل يوم عن ســابقه، ولا جديد تحت شــمس الملجأ، ســوى قلة

الموارد، وسوء جغرافية المكان، وهموم البنات التي لا تنتهي وحزن نايا المتواصل لعدم ظهوره مرة ثانية.

جاءت الامتحانات ومرت بسلام، حصلت على المركز الأول بمشقة تلك المرة، عقلها المنشغل به لا يعطيها فرصة لتفكر في شيء سواه.

أحبت اليوم الذي بشرتها فيه السير صوفيا، أنها قد نالت منحة من أحد المحسنين، للسفر للدراسة بالخارج. تركوا لها حرية اختيار التخصص الذي ترغب به، اختارت الكتابة الإبداعية منذ زمن طويل.

ولكن، تسافر دون علي؟ هكذا يخبرها قلبها، كلما حاولت أن تنساه، لا تعرف سبب تعلقها به، لم ترَه سوى مرة واحدة، ولم يعطِها سببًا لحبه، بل تعلم أنه خاف من تعلقها الجلي به، وهرب، ولكنَّ شيئًا ما في قلبها يحدثها، أنه يملك فصلًا داخل قصة حياتها.

تجرأت لأول مرة وخرجت لوحدها دون إخبار المشرفات، تبحث عن علي في الأرجاء. لا تمتلك له صورة سوى في الذاكرة، تتساءل نايا لماذا تركض خلفه هكذا؟ هل هذا هو الحب؟ هل يجعلك تقتلع آخر قطعة ملابس على جسدك في ليل طوبة لتمنحها لشخص آخر، وتقف وحدك منتظرًا الرياح والنسائم والشتائم والحياة، وأنت سعيد بموتك.

شوارع لبنان حتى الخلفية منها كانت جميلة، وهي تبحث في الأزقة على مهل بين وجوه الشباب الجالسين على المقهى عنه، أمست الثامنة مساء، وهذا توقيت متأخر بالنسبة لمواعيد الملجأ، ولم تجده بعد.

ضلت الطريق للملجأ، فعدد مرات خروجها تُعد على أصابعها

الرقيقة، وكلهن كنَّ مع إحدى المشـــرفات، خافت أكثر بوجود الحظر الليلي في تلك الأثناء بعد الحرب.

تعرف أنها لو ضـلت الطريق، سـتطلب المسـاعدة من أحد الموثوق بهم، ومن أكثر ثقة من الشرطة لتطلب منهم العون؟

ذهبت لأحد سيارات الدورية المنتشـرة بالجوار، تسـأل عن الطريق للملجأ، بعدما فقدت الأمل في إيجاد علي أو معرفة الطريق وحدها، ولم تجد سيارة أجرة تقبل أن توصلها بعدما بدأ وقت الحظر.

فأطل لها من داخل الســيارة نفس الوجه الذي خافت منه، وكرهته منذ المرة الأولى، هو ذاته الذي عنفها منذ شهرين في البدروم.

– تتذكرينني يا حلوة، أليس كذلك؟

نزل من السـيارة وهو يضـع يده فوق عصـاه وسـلاحه ويقول: يا أهلًا بالجميلة، هل جئتِ للانتقام؟

– لا، فقط أريد العودة للملجأ فقد ضللت الطريق.

– فقط هذا يا حلوة، تعالي معي أوصلك.

وفتح لها باب السيارة على مصراعيه وهو يبتسم، فكرت نايا ماذا يجب أن أفعل مع صـاحب هذا الوجه الخبيث؟ لو رفضـت كيف سـتعود للملجأ في هذا الوقت؟ ولو قبلت كيف ســتضــمن أنه ســيحســن معاملتها في الطريق، ولن يعنفها ثانية؟ ولكن هل هناك حل آخر؟! قبلت في النهاية، لأنه فرد من الشرطة، وهذا أكبر ضمان نفسي يمكن أن تحصل عليه.

***

## حادث على الطريق

للحياة تقلباتها، لكن الألم النفسي الذي يعقب التعرض لحادث اغتصاب لا يمكن وصفه، وربما من الأفضل أن تشرح لك أمي نايا الأمر، تقول أمي وهي تحكي لي كيف انتهى بها الحال، أنه بعد ما حاد الشرطي عن الطريق المفترض للملجأ، وهي لا تعي ذلك لعدم معرفتها بالطريق، قادها لمنطقة نائية، ثم أوقف السيارة في حركة مفاجئة، وقبل أن تستوعب موقفها وخياراتها المتاحة، ضربها في حركة مباغتة على مؤخرة رأسها بمسدس معدني كان يحمله معه في بنطاله، فاختل توازنها ليمسك بيديها ويقيدهما بحبل خلف ظهرها، وهو يكيل لها الشتائم والسباب، لأنها تهجمت عليه من قبل في البدروم.

ازداد غضبه عندما بصقت على وجهه، فبدأ يجردها من ملابسها قطعة تلو الثانية، وهي لا تبكي بل تقاومه قدر المستطاع كما اعتادت دائمًا في كل مراحل حياتها، لكن ليست كل المقاومات مجدية.

ففي غمرة الجلبة التي حدثت وانتهكت روحها وجسدها، بكت يومها من المهانة التي تعرضت لها أكثر من خسارتها لحرمة جسدها، رحل الشرطي بعدما انتهى منها، وبقيت هي ملقاه على جانب الطريق للصباح، حتى وجدها عامل بناء يخرج في الباكر، حملها وذهب بها إلى المستشفى القريب وهو ينكر معرفتها، أو علاقته بها، كان يريد تركها حتى لا يُلقى القبض عليه لكن حالتها وإنسانيته منعته.

كانت الشرطة قد وصلت للمكان، وأبلغت الملجأ أنهم وجدوا الفتاة التي أبلغوا عن اختفائها بالأمس، السير صوفيا أول الحاضرين وآخرهم من ناحية نايا، فبقيت تبكي كثيرًا لمجرد السمع.

لم تحتمل أن تراها في حالتها تلك، فهناك العديد من الكدمات والجروح في وجهها وكل أنحاء جسدها. فوقفت من خلف ستار تحدثها، تخبرها أنها بجوارها ولن تهدأ حتى يدفع المجرم ثمن جريمته.

كانت نايا أضعف من أن تجيب عن كل هذا، تُحِسُّ أنها دون المستوى الإنساني، فقد تكونت في عينها نظرة من الموت، هناك شيء ما قُتِل بروحها منذ تلك الليلة، وتريد أن تقتل شيئًا ما لتحيا بروحه، بقيت تحملق كثيرًا في الجدران حولها، وهي تعيد كل مرة مع ضابط التحريات نفس الأحداث، حتى يعرف من الفاعل من رجال الدورية.

وصل المُلا إلى المستشفى بعدما وصل الخبر للصحف في ليلتها، يتوعد فيها الفاعل بالعقاب، وليس بعد كل ما فعله من أجل لبنان يأتي رجل مثل هذا ليمحو صنيعته، كما أن الدين لن يسود بمثل هؤلاء الفاسدين!

ذاع صيت القضية، ونايا لا تزال غائبة عن كل هذا، كانت في المستشفى تتلقى العلاج وفي قلبها غصة، ولكن السير صوفيا طلبت أن تخرج لتبقى بين أخواتها في الملجأ، فخرجت نايا معها، خرجت إلى العالم الذي انتهك روحها، لكنها لم تحتمل نظرات الفتيات والمشرفات، فمنذ أن خطت بقدميها الملجأ والكل ينظر لها بدونية

وشـفقة، فصـعدت للغرفة الخاصـة بها، فوجدت الغرفة خالية من كل شيء، الفتيات والملابس والأدوات وكل شيء يخصها.

فقد أفرغت البنات الدواليب من أشيائها قبل أن تأتي، حتى لا ينمن معها في نفس الغرفة، فهناك من رأى أنها هي المخطئة فيما حدث، وأن ما حدث معها في هذا الحادث هو استكمال لما حدث مع الضابط في البدروم، وأنها خرجت له بإرداتها. وأخريات خفن أن يلتصق العار بهن، لمجرد البقاء معها في نفس الغرفة.

حاجز الود قد كُسِـر بينها وبينهن، فنايا المتفوقة التي نالت كل الحب والاحترام من المشرفات والطالبات صارت معطوبة، ولا أحد يريد مرافقتها.

وحدها السير صوفيا التي وقفت بجوارها، ربما لأنها على الرغم من كونها راهبة وتخلت عن الحياة الدنيا، تعرف كل تفاصيل الشارع، وتدرك أنه ليس خطأ نايا، وتحاول إقناع الفتيات بذلك.

أما نايا فقد حاولت العودة لسـابق عهدها، لكن الحادث كان أكبر من تحملها، حتى في أوقات الطعام، ابتعد الجميع عنها، كن يتجنبن أن يجلسن معها على نفس الطاولة، لتضطر السير صوفيا للجلوس معها لتؤنسها، وتركت طاولة المشرفات، وهو الأمر غير اللائق بالنسبة لهن.

افتتحت السـير صـوفيا الحديث معها ثانية عن فكرة السـفر التي طرحتها من قبل، وذلك بعد شهر من عودتها من المستشفى:

– هل ما زلتِ تريدين السفر؟

– اليوم قبل الغد؟

– يمكن أن تحجزي أول طائرة يا ابنتي، تأكدي فقط من الانتهاء من تحقيق الشرطة، وسافري.

أومأت برأسها موافقة، وأكملت فطورها في هدوء، انتظرت حتى قام الجميع ثم هي، ودخلت لغرفتها تحمل ملابسها في الحقيبة التي أهدتها لها صوفيا.

لم تكن تملك الكثير، بعض الأشياء التي لملمتها بصعوبة بالغة، وسوارها المصنوع من الياسمين، وضعته برفق داخل كتابها المفضل، ظل الريح، واستعدت للمغادرة للأبد.

اتجهت أولًا لمكتب الطيران، وحجزت تذكرة سفر للندن، ثم اتجهت نحو مركز الشرطة كما طلبت منها السير صوفيا.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهرًا عندما وصلت إلى هناك، وكان الضابط يحقق في جريمة قتل، امرأة تشاجرت مع زوجها وقتلته، لكنها مصابة بعدة جروح وكسور وطعنات، دخلت عليه مكتبه، وهي غاضبة من منعها من الدخول، فهي تريد الرحيل في أسرع وقت من هنا.

– أريد أن آخذ تصريحًا بالسماح بالسفر، الآن وحالًا.

كان يريد منها الانتظار حتى ينتهي، فحولها للطبيب مرة أخيرة، في محاولة لتضييع بعض الوقت.

– اذهبي للطبيب واحضري تقريراً طبيا بحالتك يؤكد جاهزيتك للسفر انفعلت في غضب وهي تلوح بيدها:

– هذا أمر غير هام للتحقيق بأي شكل، فليس جناية ضرب بل هو حادث اغتصاب، فقد قدم الطبيب الشرعي تقريره بحدوث واقعة الانتهاك، والموقعة بغير رضا مع وجود بعض الجروح والكسور،

بالإضافة إلى خدش غائر في الظهر.

أجابها في هدوء:

– هذا إجراء روتيني لضمان سلامتك، كما أن القضية لم تنته بعد.

– أي قضية يا حضرة الضابط! سأترك كل شيء وأسافر.

بعد جدال طويل رضخت في نهاية الأمر وذهبت للطبيب كما طلب منها الضابط وعندما بدأ الفحص، أدرك الطبيب أنها تحمل روحا أخرى في رحمها.

***

## المُلا

كان المُلَّا يعلم الفاعل منذ اليوم الأول، فهو لن يخفى عليه أمر كهذا، ولن يسلم رجلًا يعمل لصالحه لحبل المشنقة من أجل فتاة لقيطة، حتى رئيس الدورية نفسه كان يعلم الفاعل، وبالتبعية كل رجال الدورية كانوا يعلمون الحكاية من الغمز الدائر، بل ويتفاخرون فيما بينهم في نهاية جلسات الشراب والنرجيلة عن فعلة زميلهم وكيف هرب منها.

حاول الملا احتواء الأمر، كي لا يكرر أحد الرجال نفس الفعلة مرة ثانية، وتُصاب سمعة رجال الدورية في مقتل، فقرر إرساله إلى إحدى قرى الجبل حتى تنتهي التحقيقات.

***

عندما علمت نايا بخبر حملها، لم تكن قد خرجت بعد من حالة الصدمة الأولى، أرادت أن تتخلص من جريمة ارتكبها أحدهم في رحمها، فحاولت الانتحار لكنها فشلت، بعدها أصبحت عاجزة عن النهوض من سريرها، وعاجزة عن تناول طعامها، وأحيانا كانت تصاب بانهيار شديد، لم يرحمها من جنون أفكارها سوى صوفيا، عندما دخلت عليها ذات مساء، تخبرها أن رجال التحقيق اقتربوا من معرفة الفاعل، وسيعاقب على فعلته، عندها ارتسمت ابتسامة هشة على وجه نايا، ابتسامة لا تقل هشاشة عن هشاشة روحها في الفترة الأخيرة، ولم تعلم صوفيا ونايا أن الملا قد أصدر قرارًا بزواج الأخيرة من الضابط ربيع، لإغلاق القضية عندما علم بأمر الحمل، هذا المجرم صار زوجًا محترمًا في أوراق الحكومة.

***

عاشا منعزلين لسنوات طويلة عن العالم، في بيت واسع ذو مشهد رائع على سفوح الجبال في قرية متطرفة جنوب لبنان، كان اختيار أمي نايا كما أخبرتنا، أنجبت فيها ثلاثة أبناء وبنت، بينما ظل ربيع يعمل في

الشـــرطة ولا يأتي إليهم إلا على فترات متباعدة، كنا نتذمر من بعد المسافة وانعزالنا عن العالم.

حســـن أخي الكبير، أول بخت نـايا في الأولاد، وُلد بعـد عقد زواجهما في القسـم بسـبعة أشـهر، ربما لم تجد نايا أحدًا يمسـك بيدها بعد الولادة العسيرة من الأحباب، لأنها لا تمتلك أحبابًا.

فقط وجدت السـيير صـوفيا تقف لها أمام غرفة العمليات، حملته دقيقة لحظة خروجه بدافع الفضـول، كانت تريد في الأصـل أن تعرف كيف سـيصـبح هذا الطفل عندما يكبر، يظهر كل شـيء على صـفحة ملامح المرء لحظة يخرج من بطن أمه، يبدو أنه سيكون خيِّرًا، سيكون بجانب نايا، تركته وفي يده بعض من المال، وعادت لنايا تمسـك بيدها تواسـيها، تعرف أنه لا أهم من أن يحمل أحدهم همك لحظة خروجك من الموت.

أنا أصـبحت لا إنجابية، عندما بلغت من الفهم ما يجعلني أدرك ما مرت به أمي وحدها.

كانت تستيقظ في وقت مبكر لإحضار اللبن للرضيع في درجة حرارة تقارب الصفر، حتى لا ينفد مخزون اللبن لديها.

لأن ثديها رفض أن يخرج له لبنًا مهما بلغت أصـوات صـرخات استجدائه لها، ثم تجعله دافئًا فقط وليس ساخنًا، ثم الرضاعة بوضعية معينة تساعد الطفل ولا تسـبب له ألمًا أو ارتجاعًا، وتغير ملابسـه، ولا تنتهي مهمتها هنا، بل تقف تتجول في المنزل حتى ينام ثم تنام إذا نام.

تستكمل باقي يومها مستيقظة بين الرضاعة ومحاولات النوم، أو من أجل المهام المنزلية المطلوبة منها، الإرهاق والاكتئاب أصبحا صديقيها المقربين، تتخيل أنها رمته من فوق الجبل ورمت نفسها من بعده، كل يوم، كواييسها لا تنتهي، يوقفها فقط صوت بكائه عندما يستيقظ.

هناك شيء ما يجعلك تكمل حياتك بعد الإنجاب وضغوطاته التي لا تنتهي، أنك اخترت يومًا ما أن تجلب أطفالًا لهذا العالم، فتتحمل مسؤولية اختيارك.

بينما نايا لم تجد فينا هذا كلما تطلعت لوجوهنا، لو خُيِّرَت لاخترت الإجهاض، جربت إقناع السير صوفيا بأن تأخذها لطبيب النساء للإجهاض، ولكنها رفضت. تكره اسم أخي حسن كثيرًا عندما سماه ربيع على اسم الملا حسن.

ربيع تحول لشخص مقيد هو كذلك، تحول من رجل حر يعتدي على فتيات صغيرات لزوج مقيد بعائلة، ليعرف بعد ذلك أنه لا أمل في معاودة حياته السابقة، إذا وقع مرة ثانية في الخطأ، سيعاني عندها السجن. لذا، وإن كان لم يستطِع أن يبعد عن رغبته العارمة في الجنس بالطريقة التي يفضلها، فقد كان يمارس ذلك على نايا باعتبارها زوجته، فهي دائمًا ترفض العلاقة، وهو يحب عندما ترفض، فيقيدها كما اعتاد مع ضحاياه ويمارس تعذيبه لها، نتج عن هذا التعذيب ثلاثة أبناء بعد حسن، يوسف ووائل وأنا.

كان أبي فرِحًا بإنجابه الذكور، ولكن عندما وُلدت أنا بكى ربيع بحرقة عندما علم أني فتاة، لكني كنت الاسم الوحيد الذي اختارته أمي

بين أولادها ليكون لي من اسمي نصيب. كان يكرهني ويتحاشى النظر في عيني.

السـاعة الثالثة فجرًا، أيقظتني ذات ليلة في هدوء، كانت تتلفت حولها، خفت أن تكون متعبة أو ضـربها ربيع ثانية، لكنها أعطتني جواز سفر وتذكرة ذهاب بلا عودة، وهي تهمس بصوت خافت:

– اهربي اهربي ولا تعودي هنا، مهما حدث.

والدتي أرادت أن أبتعد عنه وأستكمل دراستي في القاهرة، كانت لا تريد لي مصيرًا مثل مصيرها، لكن منذ آخر مكالمة بيننا بعدما وصلت القاهرة وحكت لي ما حدث، لم أسمع عنها شيئًا.

***

## هنا القاهرة

لقد عانى العالم من الجهل والخوف أكثر مما عانى من المستبدين، تضـرب وداد ب يدها على قلبها، وكأن شـظية قديمة ذابت فيه وتقول، مات زوجي في حرب اليمن وأنا صبية في السادسة عشرة، لم يعلنوا موته رغم الخطابات العديدة التي أرسلتها للمسئولين أستفسر عن حالته، فأنا لم أرَه منذ أن سـافر للحرب ولم يرسـل خطابا واحدًا، وحين حملت بيونس وأوشـكت على ولادته أخبروني بأنه مفقود منذ شـهور، كل مرة أسأل عنه، والجواب واحد، ما زال مفقودًا، بعدها أرسلوا الجواب الأخير

يقولون إنه سيتم إعلان وفاته رسميًّا، حي أم ميت، في النهاية أصبحت أرملة.

إجراءات إعلان الوفاة والمعاش تتطلب وجودي؛ أنا الوصية على يونس أمام القانون، لكن كان له أعمام وأخوال يقومون بهذا الأمر بدلًا مني، كنت موجودة فقط أضع بصمتي النهائية على الأوراق.

لم أفعل شيئًا من اختياري في حياتي. طلبت من أمي أثناء تجهيزات الفرح كما تفعل بنات القرية بأن أختار الأقمشة وأواني المطبخ وبعض ملابسي والحُلِيَّ من البندر، كما عهدت بحكايات الفتيات اللاتي تزوجن من قبلي، نهرتني والدتي واكتفت بشراء ما ترى أنه مناسب من الدلالين، لتعطي لهم حقه بالقسط كلما مروا على المنزل.

لم أحب ذلك الفستان الأبيض من الساتان، الذي استلفته أمي من جارة لنا زوجت ابنتها قبل عام؛ كان واسعًا للغاية بحيث يتسع لامرأة ثانية معي، ولم تسمح لي أمي بتضييقه كي لا يفسد، ولم يسمح إخوتي الذكور بأن أضع الزينة، فبكيت حتى ساح الكحل الأسود من عيني، لم يعجبني شيء في هذا اليوم سوى أني ارتديت حذاء بكعب للمرة الأولى في حياتي.

تزوجت شهرين فقط، بعدها غاب عني زوجي للحرب لأسباب سياسية لا أفهمها، وعلمت بأني حامل عندما انقطعت عني العادة، وأملت أن يعود سريعًا قبل الولادة، وقد أبلغت أهل زوجي بحملي فبعثوا له بجواب يخبرونه، لم يبعث بالرد فحزنت، لكني لا أملك أن أطلب منه

شيئًا، هذا الرجل الغريب الذي صار زوجي بعد أسبوعين من خطبتي، وتركني دون أن آلفه.

حماتي التي كانت تبكي كلما رأت بطني ترتفع لأعلى، تخبرني بأني حامل في فتاة. وجاءت لي ذات يوم في الفجر، أيقظتني من النوم تخبرني أن أتبول على الملح قبل أن آكل شيئًا، عندما ظل الملح كما هو لم يتغير، بكت وأخذت تلطم وجهها لأن أول ذرية ابنها وآخرها ستكون أنثى.

عشت أيامًا مقلقة وكل النسوة من حولي يتفحصن جسدي أثناء سيري، يتداولن الكلام بأني حامل في فتاة؛ بطني مرتفعة ومستديرة وظهري ممتلئ. بعد الجواب الأخير من الجيش، صرت أرملة في السادسة عشرة، مع شائعة أني وجه شؤم.

فُتِح باب من النيران في صدري لباقي العمر، قد أخذتني أمي من يدي في عزاء زوجي لغرفة مغلقة وتركتني هناك، لأن أم زوجي جعلتني مضغة العزاء أني جلبت الشؤم والخراب. كان النسوة يعزينها ويبكين، ويتطلعن لبطني، ويكملن بكاءهن.

تزوجت وحملت وترملت في عام واحد، عندما وضعت يونس نزلت الحسرة أكبر في قلوب أخوات زوجي، لأن البيت صار لنا ولن يقتسمه أحد معنا، كانوا يتوقعون أن يكون المولود فتاة، فيعطوني مالًا وأترك المنزل لهم. لم أفرح به كما يجب، كنت خائفة أن يأخذوه مني، تقدم أحد إخوة زوجي يطلبني للزواج فرفضت، ووقفت أمي بجواري لأنها

صـــارت تكره أم زوجي بعد كلامها عني في العزاء، ولكني لا أســـتطيع الزواج مرة أخرى بعدما رفضت عم ابني.

بعد عام بدأنا في أمر المعاش، طلبوا الوصـــاية لأحد أعمام يونس، فرفضـــت ثانية، فحجبوا عني الأوراق المطلوبة لاســـتكمال المعاش، فأخرجتها من جديد بالبطاقة الشـخصـية العائلية وبعض الأموال لتيسـير الأمور.

رفضـت الزواج في المطلق، وهذا ما أشـعل الوضـع بيني وبين أهلي. رفض إخوتي بعد ذلك أن يسـاعدوني في إجراءات المعاش التي امتدت لعامين، فكنت آخذ يونس بغطاء من الصـــوف فوق ملابســـه، وألبس جلبابي الأسـود الحريري مع شـالي، وأذهب لمحطة القطار كلما تطلب الأمر، أقضي أموري بنفسي.

ســـاعدني في ذلك الوقت إيجار الأرض التي تركها والـد يونس، فكانت تكفيني وتفيض، وأحمد الله كلما جاء أول الشهر.

يوم مررنا بجامعة القاهرة، ونحن جالســـون في الأتوبيس في طريقنا لمجمع المصـالح، أشـرت ليونس نحو الجامعة، وقلت له: "عندما تكبر سـوف تدرس هنا، وتصـبح بيه كبير ذا شـأن". ابتسـم يونس الصـغير، وهز رأسه موافقًا، وهو لا يعي شيئًا عن هذا العالم سوى وجودي.

انبهرت بالقاهرة وحلمت بأن أعيش هنا، وســـط أضـــوائها المبهرة والحياة بها.

رفع أخي السلاح في وجهي، لا ليهددني بل ليعرفني مصيري لو رفضت زيجة ثانية "مستريحة" كما يقول، وقد أضمرت الأمر في صدري وسكت عنه باقي العمر، واعتبرته مات من لحظتها، هو وأهلي جميعًا.

تركتهم ورحلت لبيتي أغلقته عليَّ أنا وابني فقط، أرسلوا أمي في أثري، لتحيا معي بغرض الحماية، وفي الواقع كانت للمراقبة وتضييق الخناق، نزلت عليَّ بعد انتقالها للعيش معي بسيل من الرجال، لعدم رضائها ببقائي هكذا بلا زواج.

تقدم لي كثيرون، أرمل ولديه أطفال يجب رعايتهم يكبرني بعشرين عامًا، ولكنه مستور وصاحب أرض، ورجل بلا ولد ولا أرض لكنه متدين وسيأخذ باله من مالك وولدك.

وثالث يريد زوجة ثانية بشرط عدم الإنجاب، وأن أترك طفلي لأمي، توالي الراغبون في الزواج وتعاقب الرفض، حتى صارت أيامي سوداء، كانت أول مرة أتشبث فيها باختياري في الحياة، اخترت ابني وأنا أعلم أنه لن يختارني عندما يكبر.

طلبت أن أتعلم الخياطة من جارة لنا تعمل بها، ولكن والدتي رفضت دون إبداء أسباب، وجعلتْ قطيعة بيننا بعدما افتعلتْ معها شجارًا كبيرًا وعايرتها بعملها.

عشت خائفة من سلاح أخي وكلام أمي الحاد، ولطم أم زوجي في وجهي، ونظرات النسوة لي في السوق، ونظرات الرجال لي، وعروض الزواج، وكلها أشياء تمر ما دمت لا تحملها في رأسك، ولكن رهبتي

الحقيقية كانت خوفي من يونس وتغير حاله كلما كبر في بطن هذه العادات والتقاليد.

استحلت أمي مكاني! طفلًا واحدًا وبيتًا واسعًا دون رجل يعكنن أمرها، وينزل بفيض من الأوامر وهو جالس مكانه بلا حراك، على عكس بيتها المكتظ بالأطفال والذكور، فعاشت معنا ترتاح منهم وتقول أنها تؤنسنا، وقد فرح يونس بها، كان يستأنس بها ويجد له مشجعًا ثانيًا على كل فعل أو حركة جديدة، يستعرض نفسه ليل نهار أمامنا، وهو فخور بأننا نصفق له.

كبر يونس وهو يعتقد أن الناس لا تموت بل تُفقَد كأبيه! عاد يونس من مدرسته يوم الثلاثاء في شهر طوبة وأكثر ما أكره في حياتي شهر طوبة، وكان وصل الصف الثاني الإعدادي، فوجد نسوة كثيرات في صحن بيتنا يلبسن الأسود ويبكين، علم وقتها بوفاة جدته، بكى بحرارة ولم يستطِع كبح نفسه عن البكاء، شعرت بأنه انتهز الفرصة وبكى على موت أبيه.

فأصبح أول يوم ثلاثاء من شهر طوبة، يبكى ذكرى وفاة أبيه وجدته معًا.

مر الوقت أسرع مما أتخيل، وحان الوقت أن يتركني وينتقل للقاهرة للدراسة في الجامعة كما حلمت، الآن صاحب التسعة عشر عامًا أصبح طالبًا جامعيًّا، أتمنى في قرارة نفسي ألا يعشق فتاة من هناك، فعندها لن يستطيع العيش معي لأن بنات القاهرة لا يقبلن بيوت العائلة، وسأبقى هنا وأموت هنا وحدي خلف الباب أنتظر عودته.

وها هو قد عاد ومعه فتاة غريبة، يخبرني أنها زميلة وفقط، ولكني لا أرى ذلك في عينيه، يونس يهرب من بين يدي!، لن أتركه يتسـرب من بين يدي مهما حدث.

***

## نهار أبيض

لا أحد يتمنى يومًا سيئًا، لكن اليوم الذي يحدث فيه لنا شيء جيد كنا نسميه نهارًا أبيض، وهذا بالفعل ما فعلته بخيتة جارتي عندما دخلت عليها، اعتبرت زيارتي لها أهلًا لتسمية اليوم "نهار أبيض".

فلا علاقة تجمعنا نحن - الاثنتين - سوى السلامات، أما الزيارة المفاجئة فتدل على خبر ما، كانت بخيتة سيدة دارها، أم لخمسة ذكور وفتاة، جميعهم في كفة والفتاة في كفة، تزوج اثنان من الذكور والباقي عندما يحين دوره، فقد كانت فاحشة الثراء، وتملك تلك الحقول الممتدة إلى القرى المجاورة، فقد ورثت الكثير عن زوجها، ولكنها زادت ثروتها بعد وفاته بخبرتها وقوة شخصيتها.

ولأن ابنتها الصغيرة كانت تملك مفتاح قلبها، كنت أنوي أن أخطبها ليونس بمجرد أن ينتهي من دراسته، فأنا لا أحتمل أن يتركني ويهاجر إلى نساء القاهرة، اخترتها بعناية دون بقية بنات القرية، ولكن ظهور عاليا جعل الوضع مختلفًا، فأنا أشعر أن ابني يحبها، عندما أرى نظرته لتلك الفتاة الغريبة أعرف أنه قد أغرم بها.

كانت الشـــمس قاربت على المغيب عندما دخلت لبيت بخيتة وجلســـت في غرفة الضـــيوف على إحدى المخدات الموضـــوعة على الأرض، لم أكن بحاجة لأن أحرك واحدة من على الكنب كما هو الحال عندي، بل كانت هناك مخدات بالفعل موضـوعة على السـجاد المفروش على البلاط الذي يغطي المنزل، ولم تعرفه القرية بعد، كما أن وجود طاولة في منتصـف الغرفة عليها فازة من الكريسـتال النقي تحتها مفرش من الكروشـــيه، يبدو نوعا من أنواع الغنى الذي لم أرَه ســـوى في بيت بخيتة.

بعد أن فتحت لي إحدى الخادمات الباب، ووضعت لي القهوة على الطاولة دخلت بخيتة، فتركتنا الخادمة لحالنا، جاءتني بترحاب جميل.

– نهار أبيض، خير يا ست وداد؟

– إن شاء الله خير، قاصدة خدمة.

– تحت أمرك لو أعرف أخدمك.

كـانـت بخيتـة تملـك خـادمـة تعرف كيف تفتح الفنجـان وترى المســتقبل، أو هكذا يشـــيع بين أهل القرية، ومنعتها بخيتة منذ زمن أن تســتقبل ضـــيوفًا لها في البيت، حرصًـــا على عملها عندها، كي لا تجر ســمعة نحو البيت. فكانت تكره تواجد النســوة داخل بيتها بشـكل يومي في الحظيرة يبكين أو يندبن حظهن لو رأين في الفنجان ما يحزنهن، وأنا أريد منها أن تفتح الفنجان لي بشكل شخصي.

لم يكن الأمر إذن كما توقعت بخيتة، يتعلق بيونس أو بفتاتها الصغيرة وداد، الأسم الذي أطلقته بخيته على ابنتها لحسن الصدف، ربما أحست بالامتعاض، ولكن لم تظهر شيئًا، وقبلت أن تقرأ الخادمة الفنجان من أجلي.

كما هو متبع في قراءة الفنجان، بدأت تقلب فنجاني في طبقه كي تقرأه، ولكني كنت أحمل مفاجأة فأنا آتية بالفنجان الذي أريد قراءته، وهو فنجان يونس.

جلست الخادمة منفرجة الأسارير، لأنها تحب أن تمارس هوايتها:

– هذا فنجان رجل مكتوب عليه سفر طويل، له زوجة وبيت قريب جدًّا.

– هل زوجته من أصله أم غريبة؟

– من ذات أصل معروف، ذات أصول متجذرة، منورة في فنجانه، له منها ولد.

فرحت بالفنجان كثيرًا فأنا أصدق فيه، وأعرف كنساء القرية أن فنجانها لا ينزل الأرض.

طلبت قراءة فنجاني من فرحتي، فشربته وأنا لا أحب القهوة، استعدت الخادمة لتقرأ لي فنجاني، ولكنها بعدما قلبته على صحن الفنجان، قالت: "إنه غير واضح سوى أن الفرح قريب"، وكأنها تخفي عني شيئًا من المكتوب لي.

جلســـت بعدها حوالي ربع ســـاعة أتحدث مع بخيتة، وهممت بالانصراف، لكن بخيتة طلبت مني الانتظار حتى أسلم على صغيرتها، فقد كانت بالخارج عند خالتها.

كانت وداد الصغيرة قد عادت بعدها بدقائق، ودخلت لغرفة الضيوف مباشـــرة، فبادرتها بخيتة بالكلام، لتعلمها ماذا يجب أن تفعل: وداد، مدي يدك وسلمي على خالتك وداد أم الأستاذ يونس.

احمر وجه الصـــغيرة وداد لاعتقادها أني قد أتيت لخطبتها، فمدت يدها سريعًا ليدي، ثم أخذتها في راحة يدها لتنحني وتقبلها.

– أين الأستاذ يونس يا ماما وداد إذن؟

أدركت المأزق الذي أوقعت نفســـي فيه، فقد اعتقدوا أني آتية لخطبتها، ولكن أي مأزق وهي ســـت البنات، بنت أغنى أغنياء القرية، ذات الحســـب والنســـب. لذا، ســـوف أنفذ ما قد تنبأ به الفنجان، وأطلب يدها ليونس، قبل أن يعود من مشواره في قرية السلام.

– غدًا يأتي يا عروسة.

– ادخلي غرفتك يا وداد.

طلبت بخيتة ذلك من وداد الصغيرة في شكل سريع وبصوت حاد، حتى لا تتعلق بأي شيء من غير داعٍ:

– بالراحة يا بخيتة، البنت اتكسفت.

– الكلام ده لسه بدري عليه يا ست وداد.

أشـارت بخيتة لصـغيرتها بالدخول ثانية، فدخلت ووجهها يتشـرب الحمرة والخجل، أما وجه بخيتة فكان مكفهرًّا، تعتقد أني تلاعبت بها.

– إنت مش كنت جايه تقري الفنجان، غيرتِ ليه الكلام؟

– الوضع جعلني مطمئنة بعد الفنجان.

أدارت بخيتة الكلام في عقلها، فطلبت مهلة للتفكير، لو كنت في مكانها لفعلت نفس الشيء، إن ابنتها متعلقة بيونس، هل ستجعل ابنتها الوحيدة تعيسة، أم تساعدها؟

سـوف تسـتشـير إخوتها وأهلها وتبلغني بالرد، فأهلها يسـدون عين الشمس، لكني أخاف قليلًا من رد فعل يونس، هل سيوافق؟

***

## على ورق سلوفان

عندما عاد يونس للبلدة من امتحانات نصـف العام الدراسـي، كنت قد أعددت له مفاجأة.

مر عليه الوقت وهو يجالس القلق، فقد كنت أقضـي أمرًا مهمًّا، وهو يخاف عليَّ من خروجي وحدي،

صـدر صـوت صـرير من الباب عندما فتحته، ليجلب الانفراج الذي بدا جليًّا على يونس الذي قام من موضعه متأهبًا، يسألني:

– أين كنتِ كل هذا الوقت؟

– عدت يا يونس.

– نعم، ولم أجدك.

– والآن عدت، كنت في رحاب حبيبتك، أحضرها لك.

– لم تلك النظرة، كنت أحضر لك حبيبتك.

– حبيبتي من؟!

– ودة، وداد بنت بخيتة.

– من؟

– ودة بنت بخيتة، عروستك، أنت تعرفها، أحلى بنات البلد.

– لست أفهم!

– خطبت لك ودة بنت بخيتة، وكنت معها نشتري الجهاز والملابس وكل شيء.

صـــمت يونس أو صـــدم من كلامي، فجلس في مكانه ثانية على الكنب، وتحول لونه للأزرق القاتم، لا يدري ماذا حدث، يعتقد بأني أمزح معه، أم أنه أدرك الحقيقة.

– ليس في تلك الأمور مزاح يا أمي؟

– من قال أني أمزح؟ فرحك بالغد، أبلغتني أنك ستنهي الامتحانات اليوم، وأنا رتبت كل شيء، كما فعلت طوال حياتك، هل تعترض الآن؟

– ولكن الزواج أمر يجب أن أكون طرفًا فيه، أختار من سـأتزوجها، لسنا بهائم في السوق!

– البهائم التي تتحدث عنها لا تملك أمًّا تسـعى لها منذ كانت في أحشائها وتترك من أجلها العالم، بل أمهات تركل أولادها لو أكلوا أكلها.

– وأنا أسدد الثمن الآن بزواجي من وداد الثانية، وليس من أحب؟!

– هل تكره أن تكون زوجتك وداد الثانية؟ وهل تحب يا يونس؟ أنت قلت أن لا شيء بينكما، وأنها زميلة لا غير.

– أمي لا تدفعيني للجنون! ليس الأمر هكذا، ولا دخل لعاليا، وداد ليست من أحبها لأتزوجها.

– أحبها إذن يا يونس، وإلا فلست أمك.

– هذا كلام فارغ يُقال في الأفلام لتحريك مشـاعر التعاطف مع الأهل، لو خرجت من هذا البيت سـتبكي عليَّ حيطان هذا البيت ولن تتوقف حتى أعود.

– تحب أن تجرب؟

دلفت لغرفتي وتركته وسـط النيران تأكله، ليس لأنه يكره تلك الفتاة التي لا يعرفها حق المعرفة كي يتزوجها، ولكنه يحب أن يختار، هل لو أعطيته الاختيار كان سيوافق على الزواج من ثانية غير الغريبة؟! وأنا أريد ذرية له أفرح بها من أصـله، ولن أسـمح له أن ينجب ذرية من غريبته عاليا.

مر الوقت، خرجت وقطعت صـــحن البيت ذهابًا وإيابًا، وهو جالس في غرفته لا يخرج، ولا يأكل ولا يشـرب، خفت عليه فوضـعت صـينية الطعام على بابه، فلا قلَّ ولا زاد الطعام فيها، حتى صار من نصيب قطط السطوح.

ارتفع آذان العصـــر في اليوم التالي، وما زلنا متخاصـــمين على حالنا عندما دق الباب، لم يكن قد أكل فطوره بعد ولا حتى غداء الأمس، فقط خرج لشرب قهوة وشاي في الليل.

حضـــر إخوتي الذكور مع صـــاحب الفراشـــة ورجلين آخرين، كما اتفقت معهم. فأنزلوا الكراسي وفروع النور من شاحنة نصف نقل، وبدأوا نصب الصوان.

فتحت لهم باب البيت على مصـــراعيه، فدخلوا وخرجوا كلما أرادوا شـيئًا من المنزل، وأصـبح الصـوان منصـوبًا، وبدأت النسـوة من الجيران يتوافدن عليَّ، يباركن بالزغاريد في أرجاء المنزل، فخرج يونس من غرفته يستوعب هل يحدث هذا حقًّا؟!

اعتقد أني ســـأتراجع عندما يغلق بابه على نفســـه، وينقطع عن الأكل، فوجوده معي في نفس البيت وحده، أفضـل من وجوده مسـتأنسًـا مع غيري عن بعد.

لكني جعلت المصـــيدة محكمة الإغلاق، فالفرح اليوم وقد تمت التجهيزات يا يونس، هل سـيخرج وسـط المعازيم والناس يشـق طريقه نحو القطار المتجه للقاهرة؟!لو كان سـيفعلها لكان فعلها بالأمس، وليله

الطويل مناسب له أكثر من الآن.

عندما خرج من غرفته يلتفت حوله يتبين الوضع، وجد رجال العائلة موزعين على صفين على باب المنزل، يلبسون الجلابيب ذات القماشة الكتانية السخية، المطرزة على حوافها بالخيوط الرفيعة، المفصلة بالنظام الصعيدي المصري منذ نشأت بلدنا.

يحتفظون بها للمناسبات المهمة، ليكونوا في أفضل مظهر، كانوا يتبادلون السلام والسلامات، ويرمون نظرات نحو النساء الداخلات والخارجات من عتبة الباب للتهنئة، يتفحصون كل امرأة تمر تحت أنظارهم، ولكنهم غيروا اتجاه نظرهم عندما وصل يونس لعتبة الباب.

فنظروا ليونس ولملابسه العادية بنظرة تعجب بها بعض الاستحقار؛ كان يرتدي جلبابًا رماديًّا واسعًا خفيفًا ينام فيه، يظهر تحته ملابس التدفئة بلونها البني المحروق، فظلوا مكانهم لم يتجهوا له، ظنوا أنه خرج لهم بالخطأ، فأعطوه فرصة ليتدارك خطأه، لم يبادلوه شيئًا من التحيات.

فوقف أمامهم ينتظر رد فعل منهم، لكنه تراجع رافعًا يده بالتحية، ودخل مرة ثانية لغرفته.

كلما مرت دقيقة، يرتفع صوت الزغاريد وضرب الأعيرة النارية في الهواء. دققت الباب بالملابس الجاهزة على العريس، جهزت له جلبابًا أبيض حريريًّا، مع الشال المميز على الكتف والعمامة البيضاء التي تليق بعريس في مكانته.

فتح الباب، مد يده يأخذ ملابسه وأغلق الباب دون كلام، لبسها خوفًا من أن يدخلوا عليه يطالبونه بارتداء الملابس، فالعروس على وشك الوصول.

عندما خرج يونس بالملابس الجديدة وهو رافع رأسه، ليريهم من هو بدلًا من نظرة الاحتقار التي لفته، جئت من خلفه أحصنه من العين مع التفاف النساء والرجال حوله يتبادلون المباركة له، كنت أحلم بهذا اليوم منذ وُلد.

لبست جلبابًا وجدته على سريره بين ملابسه، يبدو أنه هدية من يونس لي، لكنه لم يجد الوقت المناسب ليعطيه لي، جلباب أسود مطرز بشكل جميل لم أرَه من قبل، هدية كتلك لم تكن مقصودة أن ألبسها يوم زفافه، لكنها حدث.

وقف يونس في المنتصف وهم يغنون ويرقصون في انتظار زفة العروس، التي طلَّت علينا من بعيد مع رجال عائلتها ونسائها، وأنا خلفه أقرأ المعوذتين وبعض آيات الرقية لحمايته من العين، كان يجب أن يتحرك وقتها نحوها ليستقبلها، خفت أن يغضب منه أهلها، لكنهم لم ينتابهم شيء وأكملوا السير نحونا.

فرحت عندما نزلت ودة من الهودج ممسكة بيد إخوتها، الذين سلموها ليونس الساهم، ليتجها نحو الكراسي الموضوعة أمام المنزل المخصصة للعروسين، كنت قد طلبت هذين الكرسيين المذهبين من أمها لكوشة العروسين، فبعثت بأجمل كراسي للعروسين، يلتف حولها

الجريد الأخضر والورود البيضاء، أحببت أن يكون كل شيء مرتبًا كما ينبغي لزفاف يونس.

فستان العروس كان من الدانتل الأبيض، أعجبني كثيرًا، فصرتُ أبعد عنه الأطفال الذين يمسكون الشمع ويسيرون خلفها، صار هذا الفستان حديث الفتيات في الفرح، وأنا ألقي الملح، وأقرأ المعوذتين خوفا من الحسد. فالمال الوفير يمنحك القوة، وقد يساعدك في شراء الفرحة، مثلما اشترى لها فستانًا جميلًا من الدانتيل مع لمحة من البساطة والرقي، زادت العروس جمالًا عندما امتزج وجهها الجميل مع شعرها المنسدل على ظهرها.

كنا نرقص على إيقاع الطبالين والراقصات الذين أحضرتهم بخيته من المنيا، ولم نسمع عنهم إلا في أفراح العمد وأولاد الباشوات، بينما حمل إخوة ودة العصي للتحطيب فوق رؤوسنا ونحن نرقص فرحة بأختهم، كل ذلك كان سببًا لجذب البلدة نحونا، فصار الشارع مغلقًا من الجانبين، وصعدت النسوة والأطفال لسطوح البيوت المجاورة تشاهد من أعلى.

أشار أخو وده الكبير نحو يونس بالعصا وهو في الكوشة بجوارها ليقوم بمنافسته في التحطيب، فأمسكت وده بذراعه حتى لا يقوم خوفًا عليه، فهي تعرف أخوها ومهاراته، لكن يونس أزاح يدها بحركة خاطفة، وقام من مكانه يرفع عصا أحد أعمامه التي رماها له، وسريعًا ما أخذ دوره ليخسر بعد الضربة الثالثة عندما وقعت منه العصا.

علت أصوات الناس فرفع أخوها النبوت عاليًا بينما عاد يونس لمكانه ثانية في الكوشة وعيني لا تفارقه، ظل يونس بعد خسارته شاردًا أكثر من

قبل، أومأ برأسه لخاله الذي أشار له بوجوب إنهاء الزفة، فأشار خاله لفرقة الطبول بدق طبول النهاية في نغمتها المعروفة، فقام العروسان عندما سمعاها، يحمل الأطفال ذيل فستان العروس، ودعت بخيتة بنتها بقبلة على جبهتها، وتركتها وذهبت مع إخوتها وأهلها، بينما حملت أنا ذيل الفستان مع الأطفال خلف العروس، وانطلقت معها لغرفتها وتركتها مع يونس، وخرجت بعدما انفض المولد.

استحيت أن أنام معهما في ليلة كتلك في نفس المنزل، فأخذت بعضي وانتقلت لمنزل أمي القديم، يتحملني أخي وزوجته لليلة واحدة فقط، لا أحب أن أثقل على أحد.

***

## ليلة الزفاف

في الصباح التالي كانت بخيتة تقوم بالتجهيز وتحضير زيارة الصباحية للعروسين، في انتظار أن تفرح ببنتها، وفرحتنا الكبرى أنا وهي عندما نعلم أنها حامل، منذ اليوم الأول من الزواج يحدث الحمل للمرأة الجيدة.

عندما دلفت لبيت بخيتة أتحسس ميعاد زيارتها، كي أكون حاضرة في استقبالها، وجدت رائحة الأكل على النار وهو ينضج في الأفران الطينية، الرائحة التي تكاد تصل لمنتصف البلدة، أعرف الأفران الطينية وجودتها في طهو الطعام، فأنا أصنعها بشكل مستطيل أقيمه على قالب من الطوب من كل جانب، وخلفه حائط صلب، ليكون فراغ في

المنتصف يوضع به الخشب أو الحطب، وربما أعشاب لو تعذر الأمر، ثم يتم استخدام الطين ليكون البناء متماسكًا، أتركه لينشف، ثم أشعل الحطب كي يقوي الطين ويصبح جاهزًا للاستخدام.

كانت الأفران موقدة قبل الفرح بأيام لاستقبال المعازيم، والنساء في البيت من الأحباب والجيران والخادمات، يطبخن ويخبزن و يأكلن من الطعام لو سنحت لهن الفرصة.

أما الصواني الممدودة في مجلس الضيوف لكبار الزوار والأغنياء منذ الأمس وأول أمس، قد مُدت اليوم أمام المنزل. كلما فرغن من تحضير نوع من الطيور، وضعنه في إحدى الصواني، لينتهي العدد بعشر صوانٍ من مختلف الطيور لفطور العروسين، ليرى المار أمام البيت الصواني التي ستذهب لهما، إضافة إلى الخبز والزبد، وكثير من الفواكه.

كانت الشمس قد وصلت لكبد السماء ولم يبقَ كثيرًا على آذان الظهر، ولكن الطعام كله لم ينتهِ بعد، مع أنهن بدأن بالخبز والتحضير منذ الرابعة فجرًا.

عندما انتهي التحضير تحركت بخيتة بالصواني على عربة كارو، محملة بالصواني مع نساء البيت والمساعِدات نحو بيت يونس، تلك هي العادة هنا، وكلما زاد غنى الأسرة زادت الصواني والزفة، لكن من هو أغنى من بخيتة في بلدتنا.

طول الطريق القصير نحو بيتنا، كانت بخيتة وزفة الصباحية تجذب الناس حولها، فخرجت النساء يتفرجن على فطور العروس عندما تكون

ذات مال ونسب من فوق الأسطح، لا يقدرن على الخروج، كن يصفقن ويطلقن الزغاريد، حتى كادت إحداهن تقع وهي تميل من حافة منزلها تشاهد الزفة، فعادت لداخل دارها تستغفر الله، وتسأله سعة الرزق، بينما ظلت بخيتة تدعي الله في سرها، أن يحمي بنتها من العين والحسد، وتردد الآيات السبع المنجيات وبعضًا من الرقية الشرعية، حتى لا تصيب ودة عين وهي عروس.

وعندما وصلت البيت، وجدتني جالسة خارج المنزل على مصطبة البيت الخارجية في استقبالها، كانت تلك مفاجأة لبخيتة! فقد كانت تظن أني نمت معهما في المنزل الليلة السابقة، فرأيتُ في عينيها أنها احترمت ما فعلت، واحترمت أكثر أنني انتظرتها لحين قدومها للدخول، لأدخل بعدها على ابنتها.

قالت لي: أحترمك كثيرًا يا ست وداد، واليوم زاد احترامي لكِ.

لم يقل انبهاري عن انبهار بخيتة، انبهرت بتلك الصواني المغطاة بأغطية من القماش الخفيف، لتحميها من التراب والحشرات ولكن تكشف الموجود. كانت الصواني عند بيتها حوالي عشر، ثم وصلت لعشرين عندما وصلت لبيتي، عربات الكارو المحملة والنسوة مع الفطور كل هذا أبهرني، ولكني لم أبد شيئًا من رد الفعل، ليس تقليلًا من هدية بخيتة، ولكن لانشغالي الداخلي بخوفي من يونس وفعله، وكيف قضى ليلته.

دقت بخيتة الباب ثلاث دقات.

تنتظر.....

ما زالت الشـــمس تقف في منتصـــف الســـماء، تنتظر من القمر أن يزيحها من مكانها، وما زال العروســـان نائمين لا يفتحان الباب، بعد ثلاث طرقات من يد بخيتة تلتها ثلاث أخرى.

الأمر الذي أفرح بخيتة بشكل جلي فكانت تبتسم، وأنا التي تمنت أن يكون ابني قد رضي ببخته وصارت زوجته.

"ربما العروسان متعبان من ليلة زفافهما".

قالت لي في ضـــحك، وانتظرت مثلها، ينبهني صـــوت الخطوات القادم خلف الباب أن يونس قادم يفتح الباب، عندما فتح بابه كان يرتدي جلابية بيضاء من القطن الصافي، ملابس تليق بصباحية عريس، يبدو عليها أنها جديدة وآتية من الكي الآن، قد وضـــعتها بالأمس على طرف السرير قبل أن أغادر.

ارتفعت صـــوت زغاريد النســـوة في الخلف عندما ظهر لهن يونس، فاندفعن وهن يدخلن الصواني ويقدمن السلامات للعريس، ثم ينصرفن في تلفت وتلهف لرؤية العروس فكن يضـــربن بعيونهن يمينًا ويســـارًا، العروس التي بقيت داخل غرفتها، دخلنا عليها غرفتها أنا وبخيتة بعد طلب بخيتة مني الدخول معها، فكانت ترتدي قميص نوم أبيض مغطى بروب ســـاتان طويل يغطي جســـدها، ولكن لا يغطي شـــعرها الأســـود الطويل، فتبدو خلابة بين اللونين الأبيض والأســـود، وإن كانت ملامح الكســـوف تعلو وجهها، خوفًا من مواجهة أمها وحماتها، فامتزج معهما اللون الأحمر الخوخي.

بعد ما ألقيت السلام عليها وقبلتها وخرجت سريعًا، لأتركهما وحدهما، وجدت اللمة قد انفضت، حتى زوجة ابنها وأحفادها، قد عادوا لبيتهم وبقيت عربة كارو واحدة فارغة تنتظر بخيتة، فبقيت وحدها في المنزل مع العروسين.

وددت أن أسأل يونس عن ليلته في استحياء، لكنه كان قد اختفى في غمضة عين! لا أدري ما الذي دار بينهما، ولكن بخيتة خرجت سريعًا تطالب العربة بالتحرك دون هوادة وعلى وجهها كل علامات الغضب، ودون إلقاء التحية عليَّ، رميت لها كلمة تنبهها لوجودي في صحن البيت دون جدوى.

ظهر يونس عندما سمع خبطة الباب الخارجي وهو يُغلق، وقد اعتقد أن كلتينا قد ذهبت، فقد كان واقفًا في المطبخ يصنع كوبًا من الشاي خرج يشربه في تبختر وهو يرفع حاجبه.

– عجيبة!

خرجت خلفها لأفهم ما حدث لأداوي الكارثة، لكن العربة كانت قد انطلقت، وما وجدت سبيلًا سوى الحديث مع ودة الصغيرة، لكن الحرج يأكلني عن سؤال كهذا، وما المفر يا وداد؟

فدخلت غرفتها وأنا أطرق الباب في استحياء، فوجدتها هادئة ساكنة تجلس على طرف السرير كما كانت وهي تبكي، كنت أهم بالسؤال لكن عندما وجدت دمعتها خفت أن أجرحها أكثر، وما وجدت سبيلًا غير المواساة.

– هل أنت بخير يا وداد؟

– نعم يا أمي بخير.

– هل حدث شيء أغضب أمك، أم أخبرتِها ما أغضبها؟

– لا، قد طمأنتها عليَّ.

– غريبة!

وانفتحت ودة في البكاء أكثر، وهي تخبئ دمعها في أكمام روبها الساتان، فيبدو كأنه مبقع ببقع زيتية، لن أستطيع أن أضايقها بالكلام أكثر من ذلك، ولكن هذا لا ينطوي على خير!

اتجهت نحو يونس الجالس على الكنب يكمل الشاي، أتحسس الكلام معه أكثر من قبل؛ لا أستطيع أن أقتحمه، فيقوم كما العجل الغاضب برفسي.

– هل كل شيء بخير؟

– نعم.

– هل أصبحت زوجتك؟

– لا، ليس لي زوجة، هي زوجتك أنتِ!

تركني مع باقي كوب الشاي على الكنب، جلست هامدة أستوعب تلك الكلمات، دخل غرفته يغير حذاءه للحذاء الجلدي، ذهب نحو بيت عادل فليس له مكان ثانٍ يقصده، وهو الأمر الذي يعتبر معابة في حق العروس هنا؛ أن يخرج العريس بعد زفافه مباشرة.

خرجت أنظر خلفه، فكانت النظرات تحفه وتطوقه طول الطريق من النساء! نفس النسوة اللاتي كن يشاهدن زفة الفطور منذ قليل في تعجب وحسد، صرن يتحدثن بشماتة عنا، فأسرع الخطوات أكثر فأكثر، يخاف منهن ومن همسهن الذي وصل لأذنه.

جلست مكاني كثيرًا أنتظر عودته، دق باب البيت، فكانت خادمة بخيتة تطلب يونس، فأبلغتها بغيابه، فحزنت وعادت ثانية بعدها بساعة، ولكنه لم يعُد بعد.

دق الباب ثانية، فكان أحد الخفر يطلب يونس، فأخبرته نفس الكلام، فظل جالسًا أمام الباب ينتظر عودته.

حتى عاد يونس فذهب معه، وتركني أنتظره كما اعتدت طول عمري. عندما عاد من بيت بخيتة، دخل غرفته لزوجته، وفي الصباح التالي وجدت البيت خاليًا من كل ما يخصه، يبدو أنه خرج ولن يعود.

***

## خطأ ثانٍ

كانت نظرات النسوة تلفني وأنا خارج من داري في صباحية زفافي تقتلني، فقط استعدت قدرتي على الكلام عندما قابلت عادل، وحكيت له كل ما دار بيني وبين وداد منذ أن خطت قدمي البلدة، وكيف رتبت الأمور بهذه الطريقة. وكيف رتبت الأمور بهذه الطريقة، يسخر مني القدر.

وصلت إلى بيت عادل بمعجزة، بعدما تجاوزت نظرات النساء التي كادت تخترق جسدي، عادل نفسه استغرب وجودي عنده عندما أبلغته أمه بزواجي، عرف بالأمس ككل الناس بأمر الزفاف، وليس كصديق مقرب، ولم يحضر الزفاف.

الأمر لم يحتَج شرحًا طويلًا عندما واجهني في المندرة، كادت أنفي تسقط من وجهي بسبب كثرة استخدامها في كلامي معه لأحكي ما حدث، كنت أحكي أن عقلي قد شُل عن فكرة الهروب بالأمس، ولكن أحب أن أهرب الآن ولا مخرج.

سألني ما الدافع الذي يجعل رجلًا يتزوج دون إرادته؟! وكيف سأخبر عاليا بأمر زواجي من غيرها؟ لوحت بيدي وأنا أخبره أن وداد رتبت كل شيء ووضعت الخطة ولفت الجنزير على قدمي، أعرف أن عادل سيتفهم موقفي، ربما لأنه الوحيد الذي يعرف أنني متزوج من عاليا، حدث الأمر سريعًا منذ أيام.

***

لو أن الحكايات تدار بالتمنى، لما تمنيت أكثر من ذلك، قبل انتهاء الامتحانات وعودتي إلى البلدة، كنت جالسًا في غرفتي عندما دق جرس الباب، تخيلت أن عادل نسي مفاتيحه، أو أن صبي المكوجي قد أتى بالملابس، لكني فوجئت بعاليا.

فتحت الباب بملابس المنزل، وتعجبت منها لمَّا رأيتها، كنت في حالة سعادة مستترة، ولكن لم أبدِ أي أمارة، انتظرت مني أن أبدأ

بالحديث، أرحب بها أو أسألها عن سبب قدومها، ولكني وقفت لدقيقة أنظر لها بتأمل، حتى أتشبع من هذا الجمال.

– هل ستجعلني واقفة هكذا؟ رجلي قد تعبت.

– سلامتك من التعب، تفضلي.

سمعت صوت الباب يُغلق دون أن أفكر أنه كان يجب أن يبقى مفتوحًا، كما فعلت سابقًا بوجودها.

– تغير رأيك في وضع الباب؟

– لا، بل أريد أن أسد باب الفكر القديم، وأنطلق نحو الجديد.

– وما هو الجديد بالنسبة لك؟

– الحياة ذاتها جديدة بالنسبة لي.

استغربت عاليا من ردي، ولكنها لم تناقشني فيه، فتركتني أدلي بدلوي، وهي تؤَمِّن على كلامي فقط، مدت يدها بهدية ملفوفة في ورق جرائد، لاحظتها في يدها منذ كانت على الباب.

– أحب شكل الهدايا، وهي ملفوفة هكذا.

– تفضل.

– هدية لي منك؟ ما زال عيد ميلادي بعيدًا.

– لأمك.

– لن أعتبرها شتيمة وسأعتبرها إجابة.

– هي هكذا بالفعل، على استضافتها لنا.

فتحت الهدية مبتسـمًا، وأنا أتأمل الجلباب، جلباب نسـائي مطرز على الطريقة السـيناوية، أحببت أن اللون الأسـود هو الأصـل فيه، والتطريز خفيف وألوانه بيضـاء في الغالب متداخلة مع ألوان خافتة، أعرف أن وداد سـتبدو كغزال شـارد بهذا الجلباب السـيناوي الجميل! تصـورت في رأسـي لثانية بعض الرجال من حولنا، الذين سـيأتون على أحصـنتهم يطلبون مني ود أمي، وسـوف أرفض كأي فلاح أصـيل، ربما أقتلهم جميعًا.

– شـكرًا لكِ، ذوقك رائع، سـأجعلها تلبسـها في عرسـي، بماذا أهديكي الآن؟

– لو قررت يوم أن تهديني أهديني الياسـمين، أحبه من حب أمي له.

عندها شـعرت بنظرات منها، كمن يحاول أن يغرقني في شـباكه، هل تكن لي عاليا مشاعر، سيكون هذا جميل، أحب أن تكون حبيبتي، عينيها تستميلني بشكل غريب وهي تتدلل مكانها.

– هل ستهدي الجلباب لأمك قريباً أو تنوي؟

– لو وافقت بنت الحلال.

– هل وجدت بنت الحلال؟

– نعم، هي جالسة أمامي الآن لو قبلت بالمغامرة بي.

تسـمرت مكانها وجمدت، لم أرَ أي تعبيرات على وجهها. لسـت أدري كيف طلبت طلبي هذا، دون مقدمات، لم يكن بيننا قصـة حب لأطلب منها الزواج، كما يبدو أن هناك شـيء يدور بينها وبين ياسـين، شعرت بهذا عندما تقابلنا، لكن هناك شيء ما قد كُسِر بداخلي، عندما جربت السـجن، خرجت متعطشًـا للحياة، فصـرت أكسـر كل حاجز يسـمح لي باقتراب المسـافات بيني وبين ما أريد، حتى لو ما أردته هذا ملك لآخر، أريد أن أقترب من الأمور أكثر حتى أصـبح في قلبها إلا مع وداد، صار هناك حاجز أكبر بيننا بسبب الخوف من ضياعها.

أخرجت عاليا سـيجارة من حقيبة يدها، وبدأت تجعلها رمادًا وأنا أشـاهدها بانبهار؛ كيف تتعامل مع الحياة بتلك السـهولة ولا تبالي؟! لو كنت مكانها لفكرت ألف مرة في أضرار السجائر، ووضعي الاجتماعي كفتاة، والحفاظ على أموالي..

أنا طلبت منها الزواج لتعلمني كيف أحيا على طريقة المغامرين والمقبلين على الحياة، وسـوف توافق، أعلم من داخلي، ليس لأنها تحبني، ولكنها تحب المغامرة، وأنا تجربة جديدة بالنسبة لها.

انتظرت إلى أن انتهت من السـيجارة وفنجان القهوة، وهي تنظر لي في تفحص ثم تكمل تفكيرها في هدوء.

– رسمي؟

– كيفما تشائين.

– إذن عُرفي، لا أحب الإنجاب ولا مسؤوليته، ولكني أحب الونس.

– عظيم زواج بلا أطفال، كم سهَّلتِ عليَّ أمري!

ضحكت عندها، وقلت لها:

– تحققت نبوءة وداد.

– لا أفهم.

تحول الحديث بيننا إلى وداد واعتقاداتها، نبشنا الذكريات يوم جئنا للتحقيق، فكرت كثيرًا بمشاعري نحو عاليا، وأحببت أن أخوض التجربة بعد خوف وداد من تجربة كتلك ومن تبعاتها، وكيف ستجعلني أجرب حياة المدن وأزهد القرية ومن فيها.

ولأنني صرت أحب المغامرة وخوض الحياة في المقام الأول، بعدما شعرت بقيمة الحياة عندما اقتربت من فقدانها، خضت مغامرة الحب مع عاليا، وأصبحت أخاف من الزواج بإحدى فتيات بلدتنا، سأظلمها بالتأكيد، لأني صرت أمقت كل ما يتعلق بالنظام والالتزام.

كنا نتحدث بأريحية تعجبني، استكملنا حديثنا عن اللاإنجابية، أنا مثلها لا أرغب بأولاد في هذه الفترة وخاصة منها، هي لا تصلح لتكون أم لأولادي، كنا نتحدث عن اختلاف الأديان بيننا والتفكير والعدمية وأشياء من هذا القبيل، كنا نتحدث عن كل شيء تقريباً إلا الحب.

– أخبرني أكثر عن أصدقائك في الجامعة، الذين تجلس معهم، خاصة الشيخ عبد الرحمن اسمه صحيح، هل يوافق على زواجنا لو علم؟

حكيت لها الكثير عن الشيخ عبد الرحمن وجماعته، كنا نتسامر ونضحك على أفكارهم المتطرفة، وإن كنت أعتنق بعضها.

اتفقنا على إتمام الأمر غدًا، ولكن دون إخبار أحد سوى عادل وصديق ثانٍ سأختاره كشاهد، وبيت الزوجية سيكون بيتها، فهنا لا يصلح لوجود عادل. عندما ننتهي من العام الدراسي الحالي حتى لا ننشغل، وأستطيع العمل لسد احتياجات البيت، فقط نكتب العقد، مع إيقاف التنفيذ.

عاد عادل للمنزل بعد الساعة السابعة، وجدنا جالسين على حالتنا، نشرب الشاي بالنعناع، وما زال الحديث ملتحمًا، تداخل في الحديث بطريقته الساخرة وهو يشد المفتاح من الباب: ولكن من يقدم لمن الاعتذار الآن، هل صارت عركه مرة ثانية؟

صدمته بقرار زواجنا في الغد وهو واقف على عتبة الباب.

– تعال بارك للعروسة، نتزوج غدًا.

– على أي نحو من الجنون أنتما متجهان؟!

قررت عاليا أنه حان وقت الرحيل، كي أشرح لعادل ما حدث ليوصلنا لهذا، هو محق فيما يقول، حاول عادل أن يعرف سبب ما حدث، ردي صريح، المغامرة يا عادل! لن أكذب وأقول الحب، هنالك شيء ما يجذبني في تجربة كتلك، أفهم لماذا قطف آدم التفاحة الآن، عندما تجرك متعة الحياة نحوها، مهما فعلت لن تنجو منها، وإلا ستعيش تندم أنك لم تجرب يومًا ما، لذا غُص الآن، أو ابتعد للأبد.

***

ما زلت أستغرب وداد وحدسها، الأمر وقتها كان لا يتعدى مرحلة الزمالة حقيقة وليس ادعاءات، فكيف عرفت بما سيحدث لي فيما بعد؟! أم أن القدر يسوقني دون إرادة بعدما زرعت الفكرة في رأسي؟

يسخر مني القدر؛ ففي اليوم نفسه الذي خططت فيه أن أخبرها بزواجي من عاليا، تكون قد جهزت ترتيبات فرحي الثاني، هذا ترتيب القدير، لأدرك أنه يجب أن أختار طريقًا واحدًا منهما ولا يمكن الجمع بين الاثنين. ليست كل الاختيارات متشابهة، يجب أن أوازن لأختار الاختيار الأفضل، ليس هناك اختيار بينهما دون خسارة.

سمع عادل ما حدث بكل تفاصيله وهو فاغر فاه، لا يعرف ردًّا عليَّ سوى أن هناك كارثة ستحدث، مهما كان اختياري!

ف ودة الصغيرة ليست فتاة ريفية بسيطة يمكن أن أطلقها في الغد وأتركها لحال سبيلها، وكأنها بلا أهل أو سند، بل هي بنت واحدة من أغنى العائلات هنا، وعند وجود المادة تحضر السلطة مرغمة، فلا مفر من الطاعة لما وقع، ولمَّا قبلوا عرض الزواج بي كانوا على يقين بموافقتي، فهي فتاة أحلام الشباب هنا، وداد التي ذهبت تطلب يدها، تعرف أنها ربطتني بطلبها، فكيف أجرؤ أن أرفض ودة؟!

كان عادل ينصحني وهو حائر:

"أن تترك ودة الصغيرة، هذا محال! وخاصة في بداية الزواج، وأن تخبر عاليا أنك تزوجت زوجة ثانية محال ثانٍ، والأهم أنك لن تستطيع الجمع بين الاثنتين، مهما طالت المدة سينكشف أمرك، الفصل

الدراسي الثاني هو آخر فرصة يمكنك المراوغة فيها، ثلاثة شهور وتكون أخذت اختيارك واحتياطاتك، يجب أن تكون واحدة فقط، وأيهما كفتها الراجحة".

بقينا على هذا الحال كثيرًا نتحدث بسيناريوهات مختلفة، ماذا لو؟ ماذا لو حدث هذا؟ سيترتب عليه هذا. مارس عادل هوايته في السخرية من الأحداث، تارة من أهل ودة وتارة من عاليا، مرة خمن أن دكتور خالد سيتسبب في قتلي.

كان يضحك وأنا أزداد غيظًا منه، حتى أمست الدنيا ليلًا، وسمعت صوت آذان العشاء يرتفع، ووجب خروجي لبيتي، فخرجت في خجل لتأخري في بيت عادل، وجلوسي لمثل هذا الوقت.

في طريق عودتي، كانت كل البيوت بالقرية قد أغلقت أبوابها بعد العشاء ما عدا بيتي، كان هناك خفير يجلس على عتبة بيتي ينتظرني، بمجرد أن رآني أخبرني أن الست بخيتة تريدني.

اكتملت الليلة بخبر كهذا!

كان الوقت متأخرًا، ولكن لا مفر من طلبها، دخلت البيت أخبرت وداد وذهبت لمصيري.

الطاعة هي الحل كما أخبرني عادل، لو تجرأت وكشفت السر لقتلني أحد إخوتها، من سيصدق أني تزوجت على غفلة، ولو صدقوني هل سيطالبون برأسي إما برأس وداد أمي؟

لن يكون هناك طلاق، ليس اختيارًا، فطلاقها يدل على وقوع خطأ ثانٍ لا يتحمل أهلها وقوعه على سمعتهم، سمعتها ستكون جليسة المصاطب والغيطان، فالنسوة يحببن أن ينزلن من قدر امرأة كانت ذات عز ويجعلنها خرقة بينهن! لذا لا طريق سوى وقوع الزواج الحقيقي، والاستمرار به حفاظًا على حياتي. كان الكلام كله مرتبًا في عقلي، هذا هو الحديث الأهم في حياتي للمحافظة على رقبتي فوق رأسي، قبل أن أذهب نحو بخيتة.

ليل طوبة يملؤه الهواء البارد، الذي يجعلك تكره عملية التنفس وتخاف على عظامك منه، فالشتاء قاتل في الصعيد، لا تنجو صبية أو عجوز من ليله البارد، الرطوبة تأكلك فتنكمش في سريرك، تلعن البرد ووهن عظامك.

خطت رجلي نحو بيت بخيتة، وأنا متوقع أن يكون إخوة وداد الذكور في حلقة كبرى منتظرين وصولي، ليرفعوا العصي على رأسي ويهشموها تهشيمًا، ربما أطلقوا عليَّ الرصاص وقالوا: "ثأر قديم"، سيناريوهات ممتازة لنهاية تليق بفعلتي كما كان يتخيل عادل.

خاب ظني ووجدت إحدى خادمات بخيتة، واقفة لي بباب المندرة تنتظرني، وتكره انتظاري من البرد الذي جعلها كعجوز في التسعين من شدة انكماشها، نظرت لي بكل حقد، وهي تخبرني بأن السيدة بخيتة قد أرسلتها لي لتستعجلني عندما غاب الخفير، ولكنها لم تجدني في البيت، وخافت أن تعود دوني، فوقفت في الخارج تنتظرني.

دخلت على بخيتة في مندرتها، وهي جالسة على إحدى الكنبات المفروشة بغطاء أبيض، على أطرافه ورود منقوشة بلون أصفر ذهبي يغطي الكسوة الأساسية للكنب، والكنب متلاصقة تلف المندرة كلها بنفس الشكل، أحب شكل المخدات الكبيرة فوق الكنب وخاصة عند الجلوس، في المنتصف كانت هناك سجادة تبدو قيمة، لا أعرف إن كانت سجادة إيراني أم ماذا؟ لكنها يدوية بالتأكيد، فتطريزها الواضح يدل على قيمتها، ولكنهم لن يلتفتوا لمثل هذه التفاصيل لجهلهم بها. وفي منتصف الغرفة طاولة ذات أرجل ذهبية وسطح زجاجي، يغطيها مفرش أبيض من التريكو اليدوي، هذه أول مرة أدخل بيتهم، وأتمنى أن يكون الأخير!

كانت تجلس وهي تمد قدميها على الكنبة، ممسكة بخرطوم النرجيلة تسحب منه وتطلق في الهواء تلوثه بفكرها، وهو وضع معتاد هنا أن تدخن النساء الكبيرات وصاحبات الأمر النرجيلة.

رفعت عينيها عندما لمحت دخولي، ووضعت الخرطوم من يدها، واستقامت في جلستها، أنزلت قدمها للأرض، وأشارت لي بيدها بالجلوس.

– اجلس يا يونس.

– شكرًا لكِ يا ست بخيتة، كتر خيرك.

– خيرك سابق، وما فعلت يكفي!

– ماذا فعلت يا ست بخيتة؟

خفت أن أجيبها بما فعلت أو ما لم أفعل من أول كلمة تحت الضغط، هذا ليس قسم شرطة، يجب أن أصلب ظهري، فلا أبدو هشًّا أمام الحساب!

– قتلت ابنتي الوحيدة ونوارة بيتي.

– قتلتها!

– عندما تتزوج امرأة لا تحبها فأنت تقتلها؟

صمتت قليلًا، وأخذت الخرطوم ثانية نحو فمها، وأنا أبحث عن إجابة خالية من تبعات القتل.

ضيقت عينيها ونظرت لي نظرة ذات مغزى:

– أو إنك لا تقدر على ما أنت مُطالَب به؟

شعرت أن ثعبانًا قرصني ويسري سمه في عروقي وأنا أبتلع ريقي:

– هذا ليس صحيحًا يا سيدة بخيتة!

– لو تعلم لماذا وافقت عليك رغم ضيق حالك، لحب ابنتي لك الذي لمحته في عينيها عندما كنا نتحدث عنك، رأت فيك الهيبة وأحبت أن تقترن بك، إن كنت لا تحبها فلماذا تزوجتها؟!

– من قال ذلك يا سيدة بخيتة؟

– أفعالك يا يونس، أنا لست امرأة تأكل من الكلام المعسول.

– كان هناك ظرف وانتهى.

– أتمنى ذلك، لا تعرف كيف وصـــل بي الحال من الفكر، فكرت في أنك قد تكون قد تزوجت دون رغبة منك، فقد أدرت الأمر في رأسي، فأنت لم تحضر لخطبتها بنفسك، ولم تأتِ غير يوم زفافك، فكرت كثيرًا في هذا الأمر، وقلت في نفســي: أمك أذكى من فعلة كتلك! فهي لا تحب أن ترى جنازتك وهي حية تُرزق.

تصببت عرقًا من تلك الكلمات؛ كأنها كشفت ما كان يدور برأسي من أحداث سابقة، وتحكي ماذا سيترتب عليها في المستقبل!

– أحب الناس إليَّ، هي ودة زوجتي يا حاجَّة بخيتة.

– كلامك حلو يا يونس، اجعل فعلك مثله، أنتظر خبرًا جديدًا من ابنتي.

قمت من مكاني أستأذنها للانصـراف، حتى ألحق بقطار الصـبح، أريد أن أودع أهل بيتي قبل أن أسافر لأمر هام.

سمحت لي بالانصراف وعادت لنرجيلتها في صمت.

خرجت من بيت بخيتة وأنا أعلم أني ســأخدع فتاة دون ذنب، فالزواج دون حب خدعة كبيرة، ولكن هل هناك حل ثانٍ؟!

كانت الساعة قد اقتربت من الحادية عشرة، عندما دخلت على ودة غرفتها ووجدتها تمثل النوم، لكنها ممثلة فاشلة، فقد فتحت عينيها حين اقتربت من سريرها، ووضعت يدي فوق كتفها العاري.

– ما زلتِ مستيقظة؟

ابتســـمت وقامت تعتدل في جلســـتها، في لحظتها أدركت ودة أن عقدتها قد انفكت وصارت زوجتي.

***

## خرج ولم يعد

في الصباح التالي أخذت حقيبتي وهم نيام، وذهبت لمحطة القطار. تركت جوابًا على رأس ودة تجده عندما تستيقظ، تخيلها عندما تستيقظ ولا تجدني بجوارها، وتجد رســـالتي، التي كتبت بها عبارة واحدة: "شكرًا أحبك سأعود قريبًا".

ربما خرجت العروس لوداد مبتهجة من ليلة أمس، تخبرها بأنها أصبحت سيدة، لتنهال عليها بالقبل والأحضان، تتمني أن تحمل ولدي قريبًا، بالتأكيد اعتقدت وداد أني ذهبت حزنًا، لكني كنت خجلان من نفسي وضعفي أمام دفة الأمور.

وصلت إلى محطة رمسيس في الساعة الثامنة مساء، وكان يتعين وصولي قبل ذلك بساعات، ولكني تركت القطارات تمر من أمام عيني تفاديًا لها، دائما أحب القطارات وسرعتها، لماذا أصبحت أتفاداها؟!

أول باب يجب أن أطرقه باب عاليا، لتعرف بما حدث، وأترك لها حرية الاختيار. قررت ذلك بعد حديثي الطويل مع عادل وبخيتة، والأهم حديثي مع نفســـي، قد اتفقنا أننا في زواجنا نخوض مغامرة، ليس الآن أفرض عليها واقعًا.

الوقت متأخر على أن تكون في الجريدة، ولكني سـأرن لها جرس الهاتف من أي هاتف أقابله خارج المحطة، ربما ما زالت هناك، لو كانت نزلت سأكسب يومًا ثانيًا أتأهل فيه للحرب.

أحب صوت دقات الهاتف، تشعرني أني أملك صوتًا يسمع صوتًا في الآفاق، تفاجأت بوجودها في الجريدة، عندما رفعت سماعة الهاتف، وقالت ألوو.

تنهي تحقيقًا قد بدأته، ولكنه يأبى أن ينتهي، فظلت هناك تنتظر الوحي أن يزورها.

أخبرتها أني أفضل الانتظار في البيت عندها لأمر هام، باقة ورد من الياسمين ستجعلها أكثر تفاهمًا، بلا فازة حتى لا أصبح جريح الرأس والجبهة لو قررت ضربي، وافقت عاليا وأخبرتني مكان المفتاح الاحتياطي وحذرتني من طول لسان حارس العقار، وأغلقت الهاتف، لم تشعر بتغير في صوتي، غريب! تصورت أنها ستحس بوجعي قبل أن أفتح فمي، هل هي مشغولة لتلك الدرجة؟

ينادي السائقين في الشوارع.. سيدة.. سيدة الصوت الأثير الذي أحب، أركب دائمًا مع الأعلى صوتًا، أحب إقبالهم على الحياة وسرعتهم، ربما تسبب أحدهم في مقتلي ذات يوم وأرتاح.

عندما حاولت أن أركب أتوبيس نحو السيدة، لم أفلح في اللحاق به؛ كان الوضع مزدحمًا للغاية..

سـمعت أحد السـائقين ينادي السـيدة، فركبت على عجل في الكراسي الأمامية كي أجد مكانًا لحقائبي.

السـيارة متهالكة، وسـائقها يجعلني أبكي، فقد كان طول الطريق يسمعنا أغاني عن العذاب، هل تعرف العذاب يا أخ؟ هل ذقته؟!

كنت ألحقه بخيالي وهو يسير بسرعة جنونية وأتخيل ردة فعلها عندما تعرف.

أضع كل السيناريوهات إلا السيناريو الذي تهجرني فيه وتبتعد، هذا السائق الأحمق يضايقني؛ كان يهدم بيوت أحلامي سريعًا على رأسي،

بالمطبات التي تجعلني أضرب في سقف العربة برأسي وأفيق.

فكل سيناريو أرسمه وأتوسمه يخيل لي أنها ستقبل البقاء معي، على عكس طبيعة عاليا الفتية، يوقظني صـوت السـائق بسـباب جديد لأحد الأتوبيسات المجاورة، أكثر ما أكره هو الزحام المروري في القاهرة.

أفضـل سـيناريو واقعي يمكن أن يقع أن تقبل الطلاق بسـهولة، دون أن تشـردني بين الناس، هذا هو الواقع، جاءني صـوت السـائق وهو يعلن عن نهاية الخط بسبب عركة قد قامت مع سائق عربة أخرى، فقرر إنهاء الرحلة.

وجدت نفسـي بالقرب من الجريدة أكثر من البيت، فكرت في التوجه إليها لتكون مفاجأة، اشتريت باقة الورد من الياسمين الذي تحبه، كنت سـأضـعها في شـكل سـوار كالسـوار الذي تضـعه في يدها دائماً، وأنتظرها، ربما يجعلها النيل وجماله أكثر حنانًا وتفاهمًا.

وصلت الجريدة بسرعة وكنت أتخيل أن الوقت يسرقني أكثر، وأنا أحمل حقيبتي على ظهري، وما عدت أشعر بها، يهمني الشعور بالفكر الدائر في قلبي، يجعلني غير قادر على شيء، دمائي كلها تتحرك نحو عقلي وترسم خرائط كيفية التصرف مع كل ردة فعل، هذا الامتحان سأسقط به بالتأكيد.

وقفت على سلالم الجريدة من الأسفل واتخذت أحد أوعية الزهور مقعدًا. أنظر لأعلى وأعرف أنه طريق طويل للوصول، فأفضل أن أجلس في الأسفل؛ خوفًا من خيبة عدم الوصول.

رمقني الحارس بنظرات فرفعت يدي أعطي له الأمان، فتركني لحالي، وجعل الضوء خافتًا أكثر وأكثر، يجلس على كرسيه الخشبي المبطن يشرب كوبًا من الشاي بالنعناع، أحسده على سكينته وراحة باله، يا ليته يعزم عليَّ بكوب من الشاي، فعمله أن يسأل أي شخص عن ماذا يريد أن يفعل بالداخل؟ ومن ينتظره؟ وفقط. لم أسمع يومًا عن جريدة تعرضت للاقتحام، ولكن الاحتياط واجب مقدس، إن الوصول لبلاط صاحبة الجلالة شبه مستحيل، لكنه ممتع لمحبي الملكة.

نصف ساعة، وقفت هناك ما يقارب من نصف الساعة، أعد الخطوات التي يخطوها الناس في الشوارع في توقيت كهذا، وليس هناك ما يشغلني سوى هذا الهواء البارد الآتي من هذا الجزء من النيل، بينما نفس الأماكن المزدحمة بالناس على النيل تكون دافئة.

أحب الناس والدفء المنبعث منهم، هل يعرف هذا الشارع أنه دافئ فيجذب الناس؟ أم أن الناس تعطي الشوارع الدفء؟ القاهرة جميلة لو

فقدت نصف سكانها على الأقل، وساحرة بحالتها تلك! لا أتخيل القاهرة دون زحام العتبة أو شوارع شبرا، لكني أحب السكينة لو قُدِّمت لي.

مارست الصمت في حرفة، لعبتي المفضلة، ليظهر خيال اثنين يخرجان معًا من باب الجريدة، يتقاربان من بعضهما في الخطوات.. متشابكي الأيدي وهما خارجان من بوابة الجريدة، فالأكتاف المتلامسة تبدو طبيعية وجميلة على عاشقين مثلهما، متشابكي الأيدي بالطريقة التي أحبها، وتظهر على شاشات السينما، تجعل كل إصبع ملامسًا لشبيهه في اليد الأخرى. تصل أصوات ضحكهما نحو الفراغ أمامهما لتملأه بالحياة، أحب أن أكون أنا وعاليا مكانهما، حتى وقفا في منتصف السلالم في مواجهة الوداع، وظهرا لي بوضوح!

ياسين وعاليا؟!

ياسين يمسك بيدها، سمعته يهمس في أذنها، وكأن ساتر الليل يغطي وجودي، أحببت أن أسمع كلمات غزل التي تقال لزوجتي العزيزة من رجل غيري!

مال عليها قليلًا وأحاط بذراعيه خصرها النحيف، وقبلها قبلة خفيفة على الشفاه، ثم أرجع رأسه إلى الخلف رفعت يدها نحو رأسه وأنا أشاهدهما، ومررت أصابعها وسط شعره، وأمسكت به وأنزلته ثانية نحوها وأطبقت على شفتيه ثانية لكن بقوة أكبر.

أخرج سِوارًا من الياسمين ووضعه حول يدها، لا أعلم هل أخبرته هو الثاني عن حبها للياسمين!

كان حارس البوابة يشـهد هذا المنظر معي ويبتسـم، ويكمل كوب الشـاي في انبسـاط وهدوء معتاد، كم مر عليه هذا المشـهد بين العديد من الشـباب الصـحفيين! وتنتهي بعض القصـص بدعوة زفاف، والبعض الآخر في صفحات القصص للجريدة بعد تغير الأسماء، كنت أشاهد ما يحدث عندما سـقطت حقيبتي على الأرض، عجزت يدي عن تحملها، فسـقطت بجوار قلبي الذي يئن، محدثة صـوتًا لا تخطئه أذن، كنت لا أصدق أنها هي، ما تلك المصادفة.. هل هناك امرأتين بنفس الشكل في نفس الجريدة بذات الوقت؟! لن أصدق نظري، سأصدق قلبي!

أحدثت الحقيبة صـوتًا جعلها تلتفت للنظر نحوي وأنا راحل، وقعت عيناها عليّ وأصـابها الخوف، ولكني لففت وجهي نحو الشـارع المعتم، أتأهب للقادم، لاحظ ياسين تلك الرعشة التي سرت في يدها لتنقل ليده قبل أن تتركها.

ياسين يعلم من تلك الإجابة بترك يده بتلك الطريقة، أنه أغفل شيئًا ما! لمح فقط رجلًا يرحل، ربما شخصًا من الماضي، وهل يهتم شخص مثل ياسـين بالماضـي، أظن أنه يريد أن يحيا فقط مع من يحب، ليس الماضي بالشيء الذي يجعله يتراجع عن حبه لعاليا.

***

# اعتراف

عندما ظهرت نتيجة السنة النهائية، وصرت طبيبة كما تمنت أمي، أحسست بأنها ليلة عيد لأمي، ولكن أين هي أمي الآن؟ هذا الرقم الذي حفظتني إياه نايا وهي تهربني، أتصل به عندما تضيق الدنيا بي أو لأمر ضروري، سأتصل به الآن لأخبرها أن الدنيا اتسعت، واستطعت فرد أجنحتي.

ضربت رقم الهاتف وأبلغت الرسالة لمن ردت عليَّ، أجابت بأنها ستبلغ السير صوفيا، متبقى أسبوعان على موعد زفافي على ياسين، وقد اشتريت الفستان الساتان الذي رسمته في خيالي، بسيط وجميل ويبرز مفاتني، أنتظر صوت أمي في أي دقيقة يرن به الهاتف.

أعددت الشقة في تأنٍ، كل شيء بها كان لائقًا، نملك نحن - الاثنين - ذوقًا واحدًا، فقط وضعت بعض الورد الطبيعي والزرع الصناعي ليضيف شيئًا من الرقي، كل شيء محضر كما ينبغي، فقط صوت أمي أو حضورها يجعل فرحي مكتملًا.

اليوم ضربت الرقم مرة ثانية، باقي أسبوع على موعد الزفاف، الذي سيقام في الحسين أحضرت فستان زفافي وأحمله بيدي الآن، كأني أستطيع أن أريها الفستان عبر الهاتف، أنتظر رد صوت أعرفه تلك المرة، لكنها لم تكن أمي.

– نعم، من معي؟

– عاليا.

– بنت نايا، أنا السير صوفيا؟

– نعم، أمي أخبرتني أن أهاتفها على هذا الرقم عندما أحتاجها، وتركت رسالة منذ أسبوع ولم يرد أحد.

جاء صـــوت بكاء خافت من خلف آلاف الأميال، والتي يبدو أنها كانت تكتمه منذ زمان طويل، فوقعت الكارثة في قلبي.

– نايا انتحرت منذ مدة يا عاليا، تركت لك جوابًا أوصـت أن يصـلك متى تهاتفيني، انتحرت بعد مقتل أخيك حسـن في الحرب، وقعت عليه قذيفة وهو بالمدرسة.

– أمي وأخي حسن ماتا؟!

– آسـفة أني أخبرك ولكنها وصـية، يجب أن تتمسـكي بالمسـيح لينقذك من الحزن.

تركت ســماعة الهاتف، وكنت أبكي وأركض على طول الشــارع لا أعرف لحزني وجهة، ولكن خبر كهذا يجب أن تجري بعده، حتى لا أموت واقفة كما الأحصنة.

ظللت أركض وعيون الناس تلاحقني، عندما يحزن المرء يتصــور أن حزنه سيطبق السماء على الأرض، ولكن السماء ستظل شامخة، بل تبتعد عنه أكثر فأكثر، حتى يصبح عقله ملبدًا بالغيوم مثلها فيصنع سمائه الخاصة.

عندما وصلت هناك، لشاطئ النيل كنت قد أضعت فردة حذائي وعقلي في الطريق، وقفت أمام النيل أريد أن أقفز لينتهي الحزن في قلبي.

لكن ياسين وحده السبب الذي يمنعني من الانتحار، يجب أن أعلمه بحقيقة من يحب الآن.

أكملت طريقي نحو الجريدة ركضًا، وصلت الجريدة فوجدت نفسي في مواجهة مرايا المصعد، كحلي الأسود يسيل على خدي ويظهرني على حقيقتي ملطخة بالسواد، وما زلت أحمل فستان زفافي بيدي كل تلك المسافة.

فتح باب المصعد في الدور المطلوب، الناس الذين كانوا في انتظار المصعد، بعضهم تراجع من منظري والبعض الآخر وقف يشاهد تلك المجنونة، فتخطيتهم لأصل لياسين.

كان يهاتف شخصًا ما عندما فتحت الباب عنوة، فزع من هيئتي، وتخيل أول الأمر أني تعرضت لحادث، فقام من مكانه وأغلق سماعة الهاتف في وجه المتكلم، لكني فتحت فمي بالكلام قبل أن يبدأ هو، وما توقفت حتى أخرجت كل ما بجعبتي، كل ما أضمرته وفعلته فردته أمامه، وهو ينظر نحوي ساهمًا.

أخبرته أن سوء أفعالي تسببت بحرماني من وداع أمي واحتضانها كما أحب وهي في اللحد، ماتت أمي ولم أعرف إلا الآن، وأصبح أخي مجرد رقم في تعداد الضحايا لتقرير ربما كتبته ذات يوم ولم أهتم أو أنظر

للأسماء، ذنب يونس الذي لم أسلم منه، كان هو الشخص الذي رآنا على سلالم الجريدة، وقد كان زوجي وقتها، ليس حباً فيه بل لغرض ما، لكنه لا يزال زوجي، فحدثت بيننا مواجهة، ليضربني ثأرًا لشرفه، فقررت الانتقام منه على ضربه لي والتخلص منه لأكون معك، فأبلغت عنه دكتور خالد أنه أصبح ينتمي لهم، كواحد من المتطرفين وليس فقط مقرب منهم، بل أنني أبلغت أنه على صلة مع جماعات متطرفة من الخارج، زرعت في رأس دكتور خالد الأهوال عنه، وأنا أبكي كدباً، أمثل الخوف بجدارة، قد سرب تلك المعلومات لأمن الدولة، ولسوء حظه وجدوه مقيم عند أحد أشهر المنتمين لإحدى الجماعات أثناء مداهمتهم.

دخل يونس السجن، اطمأننت أنه لن يخرج قريب، فدلفت لبيته ونزلت ضيفة عند عادل، أمثل ثانية حزني على اختفاء يونس، زوجي العزيز، عادل الذي لا يعرف شيء عن اختفاء يونس، بل أنه هو وأهل يونس يبحثون عنه في كل مكان، سرقت ورقة الزواج العرفي في غفلة من عادل، مزقتها بعدما مزقت قلب يونس ومستقبله كي أهرب من زواجي منه وأتزوجك، هل تصدق يا ياسين أنني كنت متزوجة منه وأنا منغمسة معك، زواج مع إيقاف التنفيذ، ولكنه ما زال زواجًا..

الآن الله رد انتقامه مني في أمي، حتى أنت الآن سترفضني بعدما عرفت بحقيقة من ستتزوج.

ظل ياسين صامتًا لا يفعل شيئًا سوى أنه يتأوه من كلامي بلا صوت، ويفرك يده في حركة عصبية كلما سمع جديدًا مما فعلت، احمر وجهه في عدة مواقع من حديثي، ولكن لم يرد بكلمة واحدة.

**– سـأترك لك فسـتان الزفاف هذا من أجل الذكرى، لا أعرف كيف حملته كل هذا الطريق، لم أشـعر به، يبدو أني كنت أحمل الحلم وليس هو!**

**خرجت من عنده مســـرعة ولم يوقفني، تركته وذهبت للأبد، قررت أن أعاقب نفســي قبل أن يقع علي عقاب الله، فذهبت للحسـين، مكان ما ولد حبي أنا وياسين، واختبأت في حضنه.**

يناير 2011

## بطن الحوت

البلد لم تعد كما هي، الشوارع غير الشوارع، والوجوه غير الوجوه، حتى المنازل أشكالها تغيرت، عدت إلى قريتي بعد سنوات من الحسرة والفقد والألم، بعدما هربت من المعتقل، عندما اقتحموه، بطريقة ما وصلت لبلدتنا، أخبرني شخص ما في الطريق، عندما سألته عن أخبار وداد أمي، بأنه يشاع أن يونس ولدها قد مات منذ زمن ولا أحد يعرف كيف مات، وأن ابنه أصبح يشبهه، هل يونس الذي مات هذا أنا؟ وأصبح لي ولد.

– ما اسم ولد يونس؟

– يحيى.

يحيى اسم جميل، كم أتمنى رؤيته واحتضانه!

وصلت لباب المنزل ثم طرقت الباب ولم يجبني أحد، تمنيت أن تفتح لي وداد أو يحيى، ولكن بعد مدة أدركت أنه لا أحد بالبيت، مازلت أتذكر أن وداد تضع مفتاحًا احتياطيًّا في جحر بجوار المصطبة، أتمنى أنها ما زالت تفعل، نبشت الجحر ووجدته.

هل هذا بيتي؟!

البيت الذي تغير وما عاد بالطين، طوب أحمر يعلو فوق بعضه البعض، منظم كبيوت المدينة، وفي أرضيته سيراميك من النوع الفاخر، وغرفة صالون، وحمام به أرضية من السيراميك.

ظللت أبحث في البيت عن شيء أعرفه، فلم أجد إلا صورتي التي أصبحت بجوار صورة أبي دون الشريطة السوداء، وداد تؤمن بأني ما زلت حيًّا.

عندما دخلت غرفتي القديمة، استغربت أن الأثاث ما زال كما هو وملابسي معلقة في دولابي في ركن خاص، على الرغم من تغير شكل الغرفة، يبدو أن وداد قد احتفظت بهذا الأثاث من أجلي.

وجدت ملابس يحيى، كانت متناثرة على الكراسي وعلى السرير في غرفتي السابقة، تتكتل في كل مكان خالٍ، وجدت آثار بعض الأشياء إلا أهل البيت؟

ذهبت لأستحم، فهل سيمحو الماء والصابون آثار تلك السنين؟! الحمام تطور به الحال وأصبحت قاعدته إفرنجية، الحوائط من السيراميك، وهناك سخان ووصلات مياه وكذلك بانيو.

وجدت عبوات شامبو وبعض المنظفات، في بيتي أنا، ثلاثون عامًا غيرت كل شيء؟

لو حلف لي أحدهم أني كنت سأجد بيتي هكذا عندما أخرج، كنت سأكذبه وأقول أنه واهم كبير، والآن أنا واقف في الوهم!

دخلت في حالة استرخاء في الحمام لمدة زادت عن الساعتين، عندما انتهيت ووجدت فوطة نظيفة معلقة على أحد الأرفف في الحمام، استغربت كيف يكون الإنسان في نعمة صغيرة كتلك ولا يدركها حتى يفقدها.

لا أعلم كيف نمت بكل هذا الأمان في غرفة وداد، اخترت أن أنام هناك أستجدي رائحتها، ولكني استيقظت على صوت أحد الديوك التي تصيح، وحمدت الله أنه ما زال هناك شيء لم يتغير، ولكن الوقت مبكر جدًّا.

هل أنتظر أن تشرق الشمس، أم أصنع فنجان قهوة وأشربه كما حلمت لأعوام في حرية الهواء؟ لا يوجد نعمة في الكون توازي الحرية، حتى وإن كانت ناقصة، لا حرية كاملة إلا بالموت، حتى الخطأ له متعته الخاصة، لأنك تفعله حرًّا.

خرجت وكان الظلام دامسًا، فوجدت ذلك الشاب يذهب لغرفتي، ولكنه لم يرَني. هل هذا يحيى ابني؟

انتظرت ولم أجزعه، وتركته يرمي بجسده على السرير، مر نسيم النوم على عينه وأنا أشهده من خلال بابه المفتوح دون أن يشعر، كما تفاجأت بالشبه بيني وبينه، أحاول أن أجر أطرافي من الخوف لأتوضأ للصلاة.

أتذكر كم مرة صليت فيها وأنا آمن، لا أتذكر كم مرة صليت خائفًا، أهرب نحو الله. أكملت طريقي للصلاة وأنا أدعو الله أن يحنو عليَّ.

فرغت من الصلاة، وذهبت للمطبخ أبحث عن القهوة، فوجدت علبتها قد تحركت من مكانها. عدت للصالة بعدما صنعت فنجانًا لنفسي، وكنت سعيدًا بهذا الفنجان أكثر من سعادتي بأول فنجان قهوة شربته.

الشمس قد أشرقت وما زال يحيى في غرفته، أنظر له بتأمل من خلف الباب الموارب، ابني أنا شاب؟

كان يرتدي ملابســه الشــتوية، ولكن البرد كان أقوى من ملابس الشتاء، هل صار البيت ممتلئًا بالوحشة؟

وجه يحيى يسـكنه هم لا يليق بجميل أسـمر مثله، كان أحق به أن يجلس الآن في برودة يناير ممسـكًا بهاتفه، يحدث فتاة في العمل معه، عن كيف سـتكون غرفة نوم أولادهم الذين لن يأتوا سـوى في الحلم بينهما، لكنها سـتكون ذكرى رائعة في المسـتقبل. الحب وحده يحملنا الذكرى وبها نحيا، يكذب من يقول "الحب يسـتمر"، لكن ذكرياته تبقى في الوجدان.

سـأصـلي ركعتين لله، ليلهمني الله الصبر على ما حدث. وداد، أين أنتِ؟

قمت من مكاني أذهب للحمام للوضـوء، لكنه كان واقفًا هناك كما لو كان ينتظرني، ليكون في مواجهتي.

– هل هذا أنت؟

لا أعرف كيف وقفت أمامه بهذه القوة ولم أحتضنه، بل تفرست في وجهه وجسده كما كان يفعل بي، مستغربًا كيف يحيي الله العظام وهي رميم! ملابسـي الخفيفة التي لا تليق بالجو، تعرفك على سـبب تلك الرعشة الواضحة في جسدي، يتفرس في لحيتي النامية الملونة بالأبيض، ليسـت كما في الصـور، لكن ملامحي ما زالت هي هي، لولا مسـحة الحزن على مرآة عيني، كنت في الصور أملس اللحية.

اقتربت منه بشكل أوضح كي أحتضنه، ففتح فمه وهمس لي:

"لِمَ عدت الآن؟!".

ذهب واختفى من أمامي، هكذا بكل بساطة عندما قال كلمته أغمضت عيني، فانتهز الفرصة واختفى.

هل هذا ما خرج منك يا بني؟ هل كنت تريد غيابي الدائم، لن أجري وراءك، لأني تعبت من الركض خلف أشياء تكرهني، جربت مرة مع عاليا ولن أكررها.

انتظرت مكاني وأنا أتابع الأخبار عبر التلفاز، كل تلك القنوات تنقل ما يحدث بقصص متضاربة. من على حق؟ هل الشعب مع أم ضد النظام؟ هل هناك طرف ثالث حقًّا، أم أنها ثورة شعبية من الظلم؟

لا أعلم شيئًا عن نظام مبارك لأني لم أعاصره يومًا، ولكني أعلم عن مصر..

عاد يحيى وما ألقى عليَّ السلام حتى، ولكني يجب أن أعرف منه بعض المعلومات:

– أين وداد؟

– إنها تبحث عنك عند أولياء الله، عند الحسين منذ شهور، تعود وقتما تنتهي من نذرها، أخبرتها في الهاتف عن عودتك.

***

## عودة الابن الضال

عاد الابن الضـال بعدما نفد صـبري، اتصـال يحيى كان طوق نجاته من غضبي عليه، أفكر فيما سأفعله عندما أراه؟

هل هناك سـبب قهري، أم اختار ذلك كي يعيش ما يرغب فيه؟ هل تزوج وأنجب وترك طفله وزوجته وحدهما؟

لم يتزوج عاليا، البنت صـارت راهبة، تشـبه المشـردين في الشـوارع والجوامع، لا تسـكن في بيت فعلي بل سـيارة أو فندق، إذن من تزوج؟! لا يطيق رجل أن يبقى بلا امرأة ثلاثين عامًا، أين كنت يا ولدي؟

جبت بلاد الله أبحث عنك يا يونس، كما فعلت جدتك إيزيس كما أخبروني، هكذا يقول لي يحيى كلما قررت أن أبحث عنك في مكان جديد، يقول:

"إن إيزيس تلبس روح كل امرأة مصـرية في غياب زوجها أو ابنها، وعلى استعداد أن تجمع جسده من كل بر في مصر، ليُبعث من جديد، ولكن لا تتخلى عنه".

كنت أبحث عنه في كل شـبر بجوار أولياء الله أرجوهم وأحثهم على عودته لبيته وابنه.

ذهبت لموقف الأقاليم الخالي بمجرد أن اتصـل بي يحيى، زغردت في الهاتف من فرحتي لعودتك يا حبيبي، طلبت منه أن يعطيك الهاتف، لكنه كان بالخارج.

وجدت الموقف فارغًا من الناس، من مجنون يسافر في تلك الأوضاع؟! ظللت أبحث عن سيارة تحملني نحوك، لكن لم أجد.

مر فرد من بلدنا وأنا جالسة على الأرض، ينبهني أنهم وجدوا سيارة سبعة راكب، ركبت معهم دون تردد، كنت أستمع لأقاويل حول وفيات كثيرة في صفوف الشباب من البلد، استشهدوا في الثورة.

لا أهتم بما يقولون، أتذكر كيف ظل يونس يلوم أباه على موته، هل أتى له قلب ليتركني في الدنيا وحيدة كل هذا الوقت؟ وابنه له حق في أن يلومه ولا يطيق البقاء معه، على الأقل أبو يونس مات وليس لنا في الموت يد، ولكن يونس ترك يحيى بلا سبب.

كلما تقدموا في طريقهم، وجدوا كمينًا يفتش عن أشخاص لا يعرفونهم، لكنهم يبدون مثل الشباب الذي يخرج على شاشات التلفزيون ينادي بالحرية والعدالة الاجتماعية، شعارات لا أفهمها، لكنها جميلة.

عندما وصلت لبلدتنا، سرت نحو البيت بحركة شابة في العشرين لا عجوز أكل جسدها الزمن، عندما وضعت مفتاحي في الباب وأدرته، جعل الصوت يونس يستنفر من مكانه ويقوم ليستقبلني بين ذراعيه.

وجهان يتقابلان بعد غياب، كيف نما الحب على جفوننا فأصبحت مجعدة وثقيلة بالشوق لا الجفاء، كلٌّ منا محمل بالتجربة التي قصمت ظهره، رأيت في عينيه كسرة لم أعرفها من قبل، في حيرة من الأمر رفعت كف يدي اليمين ثم أنزلت بضاعتي على خده.

– أين كنت كل هذا الوقت؟

يونس الذي مال مع الضربة، عاد يرفع رأسه وهو يعي سبب ضربي له:

– ليس ذنبي، قد غبت عَنْوة وعدت عَنْوة.

– من أجبرك؟

– كنت معتقلًا لثلاثين عامًا، لم أرَ شمسًا ولا قمرًا، لا أعرف للطريق خطًى، نمت كل يوم أسأل: هل تعرفون مكاني، أم أني في عداد الموتى بالنسبة لكم؟

لم أعرف كيف أرد عليه، وخاصة أن يحيى قد خرج من غرفته يشهد هذا المشهد السينمائي، ويحاول أن يستوعب ما يحدث ويشمت به.

لا وقت للتحقيق، بكيت عندما وجدته يبكي، واندفعت نحوه أحتضنه، انسحب يحيى نحو غرفته ثانية، وتركنا عندما رمينا الخلافات وراء ظهرنا.

ساد الصمت بيننا في دقائق، ما زال يمسك بي ويعصرني لا يدرك كم صرت عجوزًا ويمكن كسري بسهولة، عندما انتهى من حضني، بدأ يحقق فيما حدث في غيابه.

– أين ودة يا أمي؟ خفت أن أسأل يحيى.

– انتحرت.

– ماذا؟!

زوجته قد ماتت وهو بعيد، وابنه يحمله مسؤولية موت أمه، ولا أعلم كيف أخبره بذلك.

سيكون من المستحيل إصلاح العلاقة بينهما كأب وابن، صحيح أني وبخيتة لم نتركه لدقيقة يُهان أو لا يجد طلبه حاضرًا، ولكن كيف يطلب أمًّا ككل الأطفال؟! كيف يطلب أن يجد أبًا ينهره لو أخطأ، وأمًّا تضمه عندما يغضب أبوه منه؟ تجلس تراقبه في الشارع في إحدى الشرفات، وهو يلعب تحميه من ضربات الصغار..

ليس هناك أقسى من طفولة بلا أم، فما بالك بلا أم ولا أب، وقد احتله هاجس أن أباه سبب ذلك، سيكرهه كلما كان في احتياج له، وسيحب أن يختفي ولا يعود حتى لا يرى فيه سببًا لذلك اليتم.

ظُلِم هذا الفتى كثيرًا، حتى بخيتة تراه سببًا من أسباب موت بنتها الوحيدة، لو لم تحمل به لتركت نفسها تجرب حياة جديدة مع شخص ثانٍ، ولكن وجود يحيى أجبرها على البقاء في ظلال يونس، التي قضت بموتها؛ لكنها في النهاية تحبه، لأنه آخر من تبقى من رائحة الحبايب..

فزع يونس مما سمع، لم يرِد تفاصيل أكثر، ودخل غرفته يطلب الراحة.

بعد يوم طويل قدمت الطعام لهما، كان صوتي العالي يطلب من يحيى الخروج من أجل الطعام، ويبدو أنه يرفض أن يأكل مع أبيه من طبق واحد.

تنهدت على حال يحيى، ووضعت آخر طبق على الطاولة وجلست بجوار يونس:

– إن شاء الله ربنا يهديه لك، وضعه صعب.

– أعلم.

– غيابك وموت أمه، جعلاه شخصًا منطويًا، ويعتقد أنك السبب في موتها.

– أنا؟

قام يونس دون أن يأكل على الرغم من شهوته للطعام، فلا هو يعرف طعم الأكل المنزلي منذ سنوات، ولا أحد يعرف كيف سيهرب من تلك الوحلة! يونس الذي اعتاد أن يهرب من كل مواجهة؛ هرب في ليلة زفافه من مواجهتي فتزوج ودة عنوة، هرب من مواجهة ودة فتغرب عن بلده. هرب من أي مواجهة فضاع عمره، فسقط في ليل طويل من مواجهة النفس في السجن! والآن يجب أن يواجه كل ما حدث سابقًا، سيهرب ثانية بالتأكيد كما اعتاد.

دخل غرفته وانطوى فيها.

كنت في بيت بين اثنين، كلاهما يتقلب في مرقده من فكره، ولا يتوجه أحدهما للثاني بالكلام، والأخبار تذيع كلامًا عن تنحي الرئيس وسقوط النظام.

لست أفهم شيئًا، هل يمكن إسقاط رئيس جمهوريتنا؟

خرج عليَّ يونس وأنا أشـرب كوب الشـاي مع النعناع، وأتابع التلفاز والأخبار وأستغفر الله.

– أمي، هل بخيتة ما زالت حية؟

– تُرزق كل يوم.

– هناك الكثير من التساؤلات التي تؤرقني، ولكن عند بخيتة سأجد كل الإجابات.

خرج من البيت واتجه نحو بيت بخيتة، كما لو كان يعرف الطريق الجديد.

***

## موت صغير

هـذا البيـان الخـاص بـالتنحي عن الحكم الـذي أذاعـه التلفزيون المصـري، ثم أذاع صـور الاحتفالات في ميدان التحرير، كانت عندها البيوت المصـرية منقسـمة بين الفرحة والخوف من القادم؛ يخترق أذني وأنا أمر من أمام كل بيت بالقرية حتى وصلت لبيت بخيتة.

وجدت البيت كما تركته على حاله، ولكن تشـققت الجدران وبهت لونها بسبب الزمن، وما عاد أجمل بيت في البلدة.

ليس هناك خفر كما اعتادوا، ولا نسـاء تخدمهم، فقط بيت عادي ككل بيوت القرية.

وجدت بدلًا من طرق الباب، جرسًا أضربه فيخرج له صوت يوقظ الساكن، كان المجيب طفلًا صغيرًا لا أعرفه، سألته عن جدته بخيتة فقال إنها موجودة "تفضل".

جلست على إحدى الكنبات في غرفة الضيوف، أخرج سيجارة أشعلها، كنت سابقًا أرفض السجائر، والآن قررت أن أجرب كل أنواع الملذات قبل أن أموت.

خرج عليَّ هيكل عظمي، لكنه مكسو باللحم الخفيف، ليست بخيتة التي أعرفها، صارت ذات انحناء عظيم يصف لك ما حملته طوال ليالٍ من هموم، يستند انحناؤها إلى عكاز من الخشب، يتحمل ثقل جسدها الميت.

فتحت عينيها في ذهول نحوي، ومضغت شفتيها، ليست تلك المرأة التي عرفتها، التجاعيد قد أكلت هيبتها، فصارت طيبة الملامح ضيقة العينين، لا ترى إلا بكسر عينيها.

– هل عدت؟

خطفت الكلام من على لساني.

– مظلوم وليس كما تتخيلين يا ست بخيتة، كنت معتقلًا ولا أستطيع الهروب، لم أهرب من ودة كما تتخيلين ويقول الناس.

– الناس، وما كان همي أنا وبنتي بالناس، همي أنا كان بكلام وداد أمك بعد غيابك، بأنها من غصبتك على تلك الزيجة، ربما تكون هربت

بســـبب ذلك. همي أنا كان كلام صـــديقك عادل أنك متزوج من ثانية تحبها، وابنتي كانت فخًّا من أمك!

– في الواقع إن الكلام ليس كـذبًا ولكنـه غير حقيقي، ودة كـانـت زوجتي برضاي، أما عاليا فكانت محطة ويجب أن تنتهي، ولكني قررت بغباء أن أكمل مع القطار حتى انقلب بي.

– لا مبرر لك، فقد ماتت ابنتي بسببك.

– الحق أنه مهما حدث فلن يرجع شـيء مما خسـرنا، ولكن أنا لم أقصـد أن أفقد ودة يومًا ما، ربما تزوجتها غصبًا، ولكني لم أقتلها عمدًا، إني قُتِلتُ حقًّا يوم خرجت ووجدت ابنًا لا يرجوني، وزوجة فقدتها، وأمًّا تلومني، وحماة تريد موتي، لم يعد لي أحد في العالم!

صـــمتت عني لدقائق، ثم قالت لي: هل عرفت كيف علم يحيى بموت أمه بتلك الطريقة؟

"في يوم الجمعـة الأمر مختلف عنـدنـا كمـا تعلم، بط أو لحوم في الغداء كما اعتدنا، لا يفطر يحيى يوم الجمعة، حتى تستطيع معدته أكل كل ما تقدر. وهو قادم وجد جنازة فتاة صـغيرة، يبدو من حزن أمها عليها ومن تلك الأصوات الشابة التي تعالت بالصراخ أنها صغيرة للغاية، الفتاة انتحرت وانتشر الخبر في البلدة".

دخل يتسـحب في هدوء علينا كما هو معتاد ليفزعني، كنت جالسـة أشـرب النرجيلة شـاردة في ملكوت الله، كان صـوت خاله واضـحًا وهو يقول:

"تلك الفتاة ماتت كافرة، قتلت نفسها مثل بنتك، جالبات العار هؤلاء النساء".

وقع يحيى مغشيًّا عليه من هول تلك الكلمات على أذنه، أمه انتحرت ولم تمُت أثناء ولادته كما أخبرناه، لماذا؟

وهي متزوجة وأنجبته بالحلال، فحكينا له ما حدث أنا وأمك وداد، فصار يبكي على أمه ويكرهك ويتمنى لو كنت ميتًا بالفعل بعد هروبك، غضب على وداد فترة ثم سامحها مع الوقت، لكنه لم يسامحك أبدًا".

كنت أبكي على ابني وهي تحكي لي، ماذا فعلت بك يا يحيى وفعل الزمن بنا؟!

أسأل بخيتة: هل سامحتِني بعدما علمتِ بأمر سجني؟

لم تجِبني وقامت تسند نفسها على عكازها، تعود ثانية للداخل دون أن تودعني.

خرجت أحمل نفسي من عند بخيتة، وأنا خائف أن تطلق الرصاص على ظهري، تلك المرأة القوية أخاف انتقامها، ولكن الزمن جعلها نصف تمثال إغريقي لا يقوى على الحركة، على الرغم من أنه بالأمس قد حمل العالم على كتفه كما تقول الأسطورة، لن يصدق تلك الأسطورة إلا من رأى بخيتة في الماضي.

كنت أمشي خطوات متلاحقة، في اتجاهات صارت مشوهة والطرق خالية، أين بوصلتك يا يونس؟ عد إلى أمك يا يونس توجهك كما فعلتْ

طول عمرك، ولا تعد إلى حيث لا مكان لك، ربما كان طموحك أن تغزو المدينة وتجعل اسمك رنانًا في ربوعها، واليوم غزتك المدينة.

عندما وصلت للبيت وجدت يحيى ووداد جالسين قبالة التلفاز يشاهدان، عمر سليمان يلقي بيانًا من رئيس الجمهورية للمرة المليون يقول:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أيها المواطنون، في ظل هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد، قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية، وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شؤون البلاد. والله الموفق والمستعان".

كان يحيى يشعر بفرحة، وقام من مكانه يجوب صحن البيت، في خطى متلاحقة كمن يرقص على أنغام لا تسمع لها صدى، ولكن وداد كانت حزينة على ما حدث للرئيس الذي تعتبره كأخ لها، وتتذكر أنه ابن نكتة وبسيط، وتنعى حظه في شعب مثل هذا! ولا تعرف ماذا يريد هؤلاء الشباب من البلد.

سألتني وداد: ما موقفك يا يونس؟

موقفي أنا كان أكثر موقف مفهوم في تلك اللحظة، أعرف أن كل شيء في مصر له وجه آخر، لذا لن أحكم عليها سوى بعد عشرين عامًا، لن تطول تلك الثورة النظام فقط، بل ستطول كل ما هو ثابت في البلد، ولكنها لن تطول عقيدة البلد، هل تفهمني؟

تخيل معي يا يحيى ما سيبقى ثابتًا بعد عشر سنين، وما سيبقى ثابتًا بعد عشرين، لأن الثورات ليست عصا موسى تُغيِّر كل شيء في

لحظتها، بل تمتد كما المياه الجوفية رويدًا رويدًا نحو الأمام، حتى تخترق كل شيء في هدوء وتنفجر عينها.

كما ماتت ودة وآثار موتها ممتدة عليَّ وعليك وعلى بخيتة ووداد، ستمتد آثار تلك الثورة على كل مصري سواء آمن بها أم لا، لكن يجب أن يعرف أن التغيير قادم وكل ما يعرفه سيموت شيئًا فشيئًا، موتًا صغيرًا ثم موتًا صغيرًا تليه حياة جديدة، عندها نحكم عليها، هل نجحت الثورة أم فشلت؟

***

## كالماء اللَّين

عندما وجدت نفسي ثانية في مواجهة ياسين بين ذراعيه، لم أعرف كيف أهرب ثانية، أخذني من يدي بعد حريق الحسين ودعاني لأن أبيت معه في تلك الشقة، التي طالما حلمت بأن أسكنها معه، لم يغير مسكنه ربما أملًا أن أعود يومًا ما.

كانت الأوضاع قد صارت محتدمة، قامت الثورة بعد أيام وحتى المسجد صار غير آمن، لن يبدو غريبًا أني حلمت بالفطور معه فقط، طول السنين السابقة كل يوم في منامي.

وإن كان لهذا مدلول، فهو أننا نمنا تحت سقف واحد، وأن الزمن قد جمعنا ثانية. في الصباح استيقظت ووجدته يحضر القهوة ويطهو الطعام، وهو يقلب في هاتفه.

"يبدو أن الأخبار المتداولة لا تبشر بخير".

يقولها وهو منجذب للهاتف ويغوص به، وما زلت واقفة مكاني أنظر له أتبين الحلم من الواقع.

أنام وأستيقظ وهو يعمل ويعمل، كل تلك الأحداث لا تعطيه فرصة للتنفس. يخرج للجريدة ويعود، لا شيء جديد.

في الغد تنتهي الثورة، عندها يخلو من مشاغله، نتفرغ لقصتنا، لننهي آخر فصل بها. عندما سمعت البيان بكيت، لا أعرف كيف رسم عقلي أن مصر ستتحول للبنان ثانية وتقوم حرب أهلية، وأنا اعتدت الأمان هنا كما أهل البلد، حتى عندما كنت أنام في الشارع.

ظللت أتخيل كيف ستحترق المدن التي أحبها، وتُنهب الآثار التي عشقتها، والناس ستحمل السلاح نحو بعضها، أنا اعتدت الأمان في مصر وتركت القلق في بلاد الحرب.

عند إذاعة البيان كان ياسين في مكتبه منتظرًا الجديد، ليصوغه في العدد الجديد، عمله يتطلب أن يكون متواجدًا لحظة بلحظة في قلب الشارع.

كان منهكًا من كثرة الأمور التي تحتل رأسه عندما عاد للبيت، ولكنه كان يحب أن يطمئن عليَّ، وجدني نائمة على الكنبة أمام قنوات الأخبار، أتابع ما يحدث حولي بعيوني التي تبكي وهي نائمة. لا أعرف كيف خطرت في باله تلك الفكرة، ولكنه افترش السجاد تحت الكنبة ونام.

في الصبح عندما استيقظت، كان ياسين قد استيقظ وحضر القهوة والفطور كعادته، ويلبس ملابسه ليتجه للمكتب.

كنت أريد أن أسأله عن الأحوال، لأعرف ما خلف الأبواب من أمور هو يعلمها جيدًا، لكن يبدو أن شيئًا مهمًّا كان يشغل باله، لكنه سأل سؤالًا أوقع قلبي ثانية في حبه، وهل خرجت من حبه سابقًا؟

– ذنبك مغفور يا عاليا، يونس خرج.

– يونس حي! قابلك؟

– نعم، خرج منذ يومين من المعتقل، في هوجة الأحداث واقتحام السجون، ووجد طريقه لمكتبي، وساعدته للعودة نحو بلدته.

– وماذا أفعل الآن يا حبيبي؟

وجدت صمتًا لا أعرف ردًّا عليه، كيف يحبني ويراني بتلك الطريقة؟ فهم ما كان يدور ببالي كالعادة، وأجاب دون أن أسال.

– لا تعتقدي أني لم أحاول أن أثني نفسي عنكِ، لكن الحب جعلني قلادتك المفضلة، تخلعينها وقتما تشائين، كلما تحرش بي جمال أنثى جعلني ألعن يوم رأيتك، كم ذهب من عمري وأنا أبحث عنكِ!

قالها وتركني ونزل لمكتبه، كأنه عرف فيما أفكر، جلست أمسك الريموت أقلب قنواته دون هوادة، وجدت شيخًا مُسنًا والدكتور خالد كليهما على التلفاز، كلٌّ منهما على قناة مختلفة.

تـذكرت كيف دفعني خوفي من دكتور خـالـد للزواج من يونس، وكيف مزقت أوراق الزواج دون أن يقر يونس بذلك، وقررت أني هكذا صـــرت حرة، أفكر أن أســـافر ليونس وبلدته ثانية، لكن تلك المرة دون ياسين، التحقيق الأهم في حياتي الذي يجب أن أقوم به.

أي شـــيء ســآخذ معي وأنا مســـافرة؟ وأنا لم أعد أملك أي شـــيء، ضيفة من هنا لهناك، مشردة في قول آخر.

أضـــع خطة لأعرف كيف أتخلص من هذا الذنب، الذنب يجعلك ثقيلًا ولا تعرف كيف تلتفت برأسـك، ولكنك عندما تتحرر منه لن تكون بخفة فراشـــة بل أخف، عندها خف من خفتك، فربما تطير ولا تعود لأرضك ثانية.

سأكتب جوابًا لياسين أعلمه أني لم أهجره تلك المرة، ولكن سأعود له عندما أتحرر. أمسكت ورقة وقلمًا وما أكثرهما في بيت ياسين.

"حبيبي ياسين، عندما تجد هذا الخطاب، سأكون ربما قد وصلت لسـمالوط، أبحث عن ميدوسـا خاصـتي، أحولها وأتحول وأعود لك كما كنت الأساطير".

تركته على بار المطبخ، وذهبت أصنع العالم الذي أرجوه.

سـأعود لهذا الطريق وسـأعد كل الشـجيرات الصـغيرة التي كبرت على ذلك الطريق من القطار، هل سأجد نفس النساء على شاطئ النيل ينظفن الأواني؟ ونفس الأطفال يلعبون بالمياه؟ ولكن هل ســـأجد قطارًا اليوم مع تلك الأحداث؟

أي طريق سيوصلني سأركبه، سأعود للحسين أفي بنذري الذي نذرته لو تزوجت ياسين، وتخلصت من ذنبي. كلما أردت أن يحدث شيء جيد، نذرت للحسين.

ذهبت إلى موقف الأقاليم وأنا أستعلم عن سيارة تتجه لسمالوط بشكل مباشر، وقفت من بعيد أنتظر أن يتم الركاب الذين ظننت أنهم لن يكتملوا سريعًا، لكن السيارة اكتملت بسرعة البرق، حتى في ظروف كتلك كان الناس يسافرون لقضاء مصالحهم.

ركبت بجوار السائق في الأمام، وكنت نسيت أن أحضر سماعة أذن أتسلى بها في الطريق، فاشتريت واحدة من الموقف هناك، من النوع الرديء ولكنها تفي بالغرض، تلك الأشياء الرديئة التي تجعلك تمضي في أمور ولو بشكل مؤقت، أحبها وأبغض جودتها.

لم يعد الطريق كما كان، كل تلك الأراضي الخضراء قد أكلتها المباني ولم تعد حية، أستغرب كيف حلَّ هذا اللون الأحمر بدلًا من الأخضر!

البيوت متفاوتة وكلها عجيبة؛ بعضها جميلة تسر العين وغيرها قبيحة تحزن النفس! ليست على نفس الطراز فيبدو الجميل منها كالقبيح، حتى النيل قد أكلوا منه وبنوا عليه بعد ردمه، جعلوه يبدو مُعرَّجًا وقطعوا كل تلك الشجيرات التي لطالما حكت أسرارها للنيل واغتسلت بمياهه، إن الإنسان كائن مدمر، ويبدو أنه مدمر أكثر لو كان جاهلًا.

الطريق لم يعد طويلًا كما كان، ولكن توقعت أن يطول بسبب الكمائن، ولكن الشرطة اختفت من المشهد.

عند ما نزل الركاب كانوا على علم بطريقهم ما عداي، توقعت أن ينظر لي الناس نفس نظرات المرة السابقة، ولكنهم تلك المرة تعاملوا معي كأمر اعتيادي، جعلني هذا أشعر بارتياح أكثر.

وجدت تاكسي أعطيته اسم البلدة، السائق يحب أن يتسلى في الطريق فيحكي لي عن الناس. فحكى لي عن المعتقل الذي عاد بالأمس في القرية التي اتجه لها، وصارت حكايته مضغة البلدة، يشاع أنه قد سجنته امرأة كان متزوجًا منها، إنها ابنة حرب غريبة ليست من هنا، وأبناء الحروب غدارون يتطبعون بطباع الحرب، فغدرت به وظل في السجن منذ الثمانينيات حتى اليومين السابقين.

– هل تصدقين هذا؟ امرأة ملعونة!

ملعونة حقًا، أنا أدرى الناس بهذا.

وصلنا البلدة لم أعد متأكدة من المكان، لكن بالسؤال تأكدت أن منزل يونس هنا، دلني شخص ما على البيت، وصلت للبيت الذي تغير شكله، لا أعرف إن كان يجب أن أدق الجرس أم لا؟

نجاة تجيبني من البيت المجاور بصوتها المبحوح:

"فإن من بدأ المأساة ينهيها".

أمقت تلك الأغنية ولكني أحب صوت نجاة، لا أعرف كيف أنهيها، ولكن المحاولة خير دليل، سأحاول.

دققت الجرس واقفة أنتظر خروج وداد، ربما تصفعني على وجهي، هربت من مواجهتها في رحاب الحسين على الرغم من أنها متأكدة من شخصيتي، لكن إحدانا لم تجرؤ على مواجهة الثانية وأحمد الله على ذلك، ولكني أتيت بقدمي لمصيري.

انتظرت أقل من دقيقة ولكنها مرت عليَّ زمنًا، كل سيناريو وقع في عقلي كان مقبضًا، ولكني لم أتخيل أن يخرج يونس بنفسه يفتح لي الباب.

– يونس!

التعبير الذي يعلو على وجهه كفيل بأن يعرفني بأن النهاية اقتربت، يريد أن يركلني خارج الحياة، تجمعت تجاعيد وجهه لتصبح أرقامًا أحادية على جبهته، واحمرت وجنتاه، وعيناه تسمرت على عيني. وأنا الفرحة من تأكدي أنه حي، قد جعلت وجهي بدرًا مستنيرًا، أنا أعلم أنه حي من ياسين، لكنه بشحمه أمامي، كل ذنبي قد غُفِر.

ذنبي الذي جعلني ميتة حية طول أعوام، فكت عقدتي وعدت للحياة. الآن يتملكني شعور بأني أريد أن أحتضنه، ليس حبًّا، لكنه اطمئنان، ربما يخفف الحضن حدة ما فعلت به، أو أتأكد من أنه هو، الحضن البشري يأكل اليأس ويعطيك الأمان والأمل.

– يونس، أنت حي! لا أعرف كيف أعتذر لك عن ما فعلت، مهما - شرحت لك كيف دمرني ذنبي هكذا قبل أن يدمرك، فلن تفهم. هل تقبل

اعتذار امرأة أحســـت يومًا ما أن حريتها في خطر، وكنت أنت العقبة، فحاولت تجاوزها؟

صـــمت وظل يتفحص وجه، لا تعبيرات تعلو وجهه، فقط يحاول أن يتبين صدق كلامي.

– أعلم مدى ســوء فعلتي وأي كلام ســيكون ركيكًا، ما نفع الكلام والاعتذار مقابل العمر؟!

أنا أتيت وكلي أمل أن أطهر نفســي من ذنبك، ربما تخليت عن كل شيء في مستقبلي إلا وجودي هنا، أطلب غفرانك.

– غفراني؟

– أطلب ما تريد حتى رقبتي مقابل مغفرتك، فأنا عبدة ذنبي.

نظر لي يونس يبتسـم بنوع من التعالي، هل يطلب رقبتي فعلًا؟ كلام أفلام، سيعيد قصة الحب والسلام ويقطع رقبتي، بدأت حياتي بتحقيق قتل ولن تنتهي بجريمة قتل، لن يسـامحني ولن يطلقني، سـيتركني كما أنا عالقة في وحلي، أليس كذلك ستفعل يا يونس؟

لكنه فاجأني!

– اذهبي أنتِ حرة، لا أريد منك شيئًا، ليس لأني لا أريد الانتقام أو أن أجعلكِ تذوقين المهانة التي تذوقتها، ولكن لأني وجدت أملًا أريد أن أرويه، وسـأبذل جل وقتي وطاقتي فيه، ولا وقت عندي للانتقام، ابني يحيى.

– لك ابن؟

– نبت من الأمل والحلم.

– تتحدث الصدق؟

– نعم، وهو شاب، ويريد أبًا بجواره يعوضه عما فات ويصلح كسور روحه، وسأتفرغ لأكون الأب الذي افتقده طوال عمره.

– حياتك صارت جميلة يا يونس.

– منذ الأمس فقط، عندما دققت في وجه يحيى، ووجدت على وجهه مسحة من طيبة أمه، وملامحي، وطباع وداد الصعبة.

– نجوت أنت يا يونس، حتى لم تجعلني أدخل عتبتك، تلفظني بكل ما أوتيت من قوة.

– أريد الاستقرار والسكينة، ذنبك سيقتلك يومًا ما، وأنا محب للحياة كما عاهدتني.

وقفت لا أعرف كيف أرد عليه، ولكنَّ شيئًا ما جعلني أطلب منه أن أسلم على وداد ويحيى، هل يحيى هذا جميل؟ كم عمره؟ أنا غبية،

ثلاثون عامًا منذ اعتقل يونس، فوجئت بوداد خلف الباب تفتحه على مصراعيه، كانت تتنصت علينا كعادتها.

– لم أتعرف عليكِ في البداية عندما رأيتكِ في الحسين لدقائق، لكني عرفتكِ بعدها، هروبك مني ومن نظراتي جعلني أتأكد منكِ، كنت أتابعكِ لأجد رياح يونس، ظننت أنه متزوج منك وتسكنان معًا،

حاولت تجنب مواجهتك أو قتلك لتوصـــليني لابني، لكني وجدتك مشـردة وتعيسـة وهذا ما تسـتحقينه بعدما فعلتِ بابني، فقد أخبرني كل شيء بالأمس.

– أحببت أنكِ رأيتِني في حالي هذا، حتى تحكي ليونس حقيقة ما حدث لي بعده، كيف أكلني شـعوري بالذنب، حتى أوصـلني للرهبنة في بيوت الله، أبحث عن الغفران ولا أجده.

– سأحكي له نومكِ في سيارة صغيرة حقيرة، وتشردك بين الشوارع والفنادق، عن نظرات الناس لكِ في بيت الله، وكذلك ليحيى ابنه اليتيم بسببك، ولقبر ودة زوجته كي ترتاح في مرقدها.

وجـدت نفســـي غير مرغوب تواجـدي في المكـان، نظرات وداد تمزقني، حتى تخيل لي أن الهواء يضيق بي ولا يدخل لصدري.

ألقيت السـلام عليهما وتركتهما خلفي، واتجهت مكان ما أتيت، وكنت أتساءل في عقلي: كيف كان سيكون شكل يحيى لو كان ابني؟

خطوت خطوات صغيرة، ليردني صوت يونس:

– عاليا، لقد نسيت، أنتِ طالق، أقولها الآن بكل جوارحي.

نسـيت أني كنت قد أتيت لأحصـل على طلاقي، ابتسـمت له في حزن، لا أعرف لماذا حزنت بعد طلاقي منه لكنني مضيت.

***

## عقرب صغير

عدت في نفس الطريق الذي حملني نحو يونس ليحملني لياسين، ولكني الآن حرة من ذنبي ومنه.

أتصور لو كنت أنجبت من ياسين طفلًا، لكان الآن شابًّا، ربما طلب مني أن أخطب له فتاة يحبها، ولكني في قرارة نفسي أعي أني أرفض الإنجاب ومسؤوليته، فقط أتخيل.

لا أريد أن أتحمل مسؤولية فوق طاقتي، كنت أرى أمي نايا ومجهودها المبذول من أجلنا، وفي النهاية بلا تقدير.

كنت أريد أن أولد عقيمة، كي لا أقع في حيرتي تلك، ولكني أذكر أيضًا كيف كانت ذكرياتي مع أمي، الحب اللا منتهي بيننا والمشاركة والاهتمام.

الحب غير المشروط بيننا، لم يجمعني بشخص ثانٍ سواها، ولكن كل شيء يملك وجهًا ثانيًا، تخيلت في طريقي لو كنت أنجبت فتاة، يا للجمال!

كيف كانت ستتحول حياتي من وحدة لأنس، كنت سأخرج معها كصديقة في كل مكان، ربما تتحمل معي ساعات التسوق الكثيرة التي أستهلكها، أجد من يشاركني ذوقي في الملابس والحُلِيّ، كنا سنطبخ كل يوم طعامًا من اختراع إحدانا، الشاي معها في الشرفة أو الخروج في النادي أو المصايف، أجد من أتحدث معه دون خجل في أي وقت وأي شيء، ولا يحكم عليَّ حكمًا قاسيًا.

ستكون زينة البنات، أسرح لها شعرها وأجعل أصابعها ملونة بطلاء

الأظافر، تخيلت كل هذا وبكيت! ففي النهاية أعلم أني تأخرت كثيرًا على هذا، صرت عاجزة عن الإنجاب.

ياســين تركني أذهب قبل ثلاثين عامًا دون أن يوقفني، والآن هل يتركني ثانية أذهب وحدي لمصــيري، ويبكي لرجوعي، هل هذا هو الحب في نظره؟

أسامحه وأحبه مهما فعل، خطئه ليس أكبر من خطئي.

كيف صــارت الأمور بعيدة بيننا لتلك الدرجة؟ كيف أضــعنا من عمرنا تلك الفترة؟ ياسين في نهاية الأمر رجل وليس أمي، لن يحبني أحد مثل أمي.

جروحنا ســتلتئم مع الوقت، لكن الوقت لن يعود ثانية، يجب أن نتعلم كيف نعيش مع ذنوب قد ارتكبناها، وأفعال غبية قد قمنا بها، ولكن أن تتوقف حياتك من أجل ذنب هو غباء ممتد.

– تخيلت أو تمنيت، وأنا أمضــي في طريقي نحو الحســين ثانية، لا أعرف وجهة غيره تتحملني الآن، إن ياســين أتى لي يقبلني ويســألني البقاء بجواره، يركع على ركبتيه، ويسألني..

– هل تتزوجينني يا عاليا والآن؟

– لأجيب بكل سعادة وأن أبكي.

– نعم، منذ ثلاثين عامًا أجبت بنعم، والآن أكررها.

ليخرج سِــوار الياســمين من جيبه ويضــعه حول يدي، ليخبرني في حنو.

– منذ تركتِني ورحلتِ نحو المجهول، وأنا أحمل هذا السوار، أريد أن أصلك.

يلف السوار حول يدي وأنا أسأله:

– ليس ياسمينًا طبيعيًّا؟

– كان سيموت لو كان طبيعيًّا، ولكن هذا سيحيا للأبد.

– اذكر لي أمرًا واحدًا كان طبيعيًّا في علاقتنا، كي يكون السوار طبيعيًّا.

– إننا بشر نخطئ ونصيب.

– لماذا تحبين الياسمين هكذا، وخاصة بشكل سوار؟

– تغيرت حياة أمي بسبب سوار ياسمين كانت تبحث عن صاحبه، فكان سبب مجيئي للعالم.

نزلت دموعي تشهد الحلم كما شهدت المأساة من قبل، مسحتها وأكملت الطريق، لا أعرف ماذا سأفعل في الغد، ولكني قررت أن أحتفي باللحظة وفقط، وغدًا سنعيشه، ونرى كيف هو، لنحتفل بـ سوار الياسمين الموضوع حول يدي في خيالي الآن وللأبد.

تمت بحمد الله

جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للناشر

30 عمارات العبور – طريق صلاح سالم – القاهرة

ت: 01096539633

إيميل: info@noonpublishing.com

لينكات التواصل مع الدار